السؤال الذي لا يغيب

البحث عن إجابات في
عالمٍ تعصِفُ به المآسي والآلام



فيليپ يانسي

مساعدةٌ عمليّةٌ وحقيقيّةٌ لمَن يفتَقدون الأمل

في بعض الأحيان، تصلُنا الأخبارُ على نحوٍ لا يُحتَمَل. تسونامي أو زلزال أو فيضانٌ هنا، وحريقٌ أو حربٌ أو مجاعةٌ هناك. نتوقَّفُ عن سماع الأخبار لنتلَقّى مكالمةً هاتفيَّةً حول والِدَين ينتَظِران ولادةَ طفلِهما لكنَّه يولَد مَيِّتًا، أو حول شخصٍ نحبُّه وقد عاوَدَه داءُ السرطان.

نتساءل جميعًا: أين الله؟ أين أنتَ يا الله؟

يتناوَلُ يانسي هذا "السؤال" في مدينة نيوتاون، حيثُ وقعَتْ حادثةُ القتل في مدرسةٍ ابتدائيَّة، ثمَّ في اليابان حيث أودَتْ أمواج التسونامي بحياة ١٩,٠٠٠ شخص، وأيضًا في مدينة سراييڤو (يوغسلاڤيا السابقة) حيثُ اندلَعتْ حربٌ أهليَّةٌ دامية لَقِيَ فيها ١١,٠٠٠ شخصٍ حتفَهم.

إلى الذين يبحثون عن إجاباتٍ في عالمٍ تعصفُ به المآسي والآلام، ولا سيَّما في منطقتنا العربيَّة شديدة الاضطراب، والتي تَقِفُ على صَفيحٍ ساخنٍ من النزاعات والإرهاب وعدمِ الاستقرار- نتمنَّى أن تجدوا في هذا الكتاب العَزاءَ والرجاءَ من جديد، لتَكونوا مجهَّزين للتَّجاوُب مع معاناتكم بطريقةٍ لم يخطرْ لكُم قَطُّ أنَّها قد تكون ممكنة، ومن ثَمَّ ستَقتَربون من الله بدلًا من الابتعاد عنه.

السؤال الذي لا يغيب

السؤال الذي لا يغيب

البحث عن إجابات في عالمٍ تعصِفُ به المآسي والآلام

فيليب يانسي

ترجمة: عصام خوري



ophir

Originally published in English under the title:
The Question That Never Goes Away

Second print 2015.
Published in agreement with the author, c/o Creative Trust Literary Group, Brentwood, TN, U.S.A.

السؤال الذي لا يغيب

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٤م
الطبعة العربية الثانية ٢٠١٥م

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمان ١١١٨١، الأردن
هاتف: ٣٨١ ٤٦٣٣ ٦ ٩٦٢+ ، فاكس: ٣٨٥ ٤٦٣٣ ٦ ٩٦٢+
Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo



رقم الإيداع: ٢٠١٤/٦/٢٨٤٦
ISBN 978-90-5950-207-9

تنهَّد قلبي وتنفَّس الصُّعَداء، وهنا ثارَ السؤال. يا إلهي!
هكذا عرفتُ أنَّك مَوجودٌ في الحزن...

جورج هيربرت (George Herbert)
المعاناة (Affliction III)

المحتويات

الجزء ١

أين الله؟

أُصيبَ والدي بشَلَلِ الأطفال قبَيلَ عيد ميلادي الأوَّل. استَلقى مشلولًا من الرقبة فما دون غير قادرٍ على الحركة في جهاز التنفُّس الاصطناعيِّ الصاخب الذي كان يساعده على التنفُّس. كانت والدتي تحضرُني أنا وأخي البالغ من العمر ثلاث سنوات إلى المستشفى، وتحملُنا إلى نافذة الجناح المعزول ليتمكَّنَ زوجُها عبر النَّظَر في مرآةٍ أن يلمَحَ ولدَيه اللَّذين لم يكُنْ يستطيعُ أن يحملَهما أو يلمسَهما.

كان والدي يستعدُّ للذَّهاب إلى أفريقيا مُرسَلًا. وعندما أُصيب بالمرض، قرَّر بضعةُ آلافٍ من الأشخاص أن يُصلُّوا من أجل شفائه في حلقاتِ صلاةٍ متتابعة. لم يستَطيعوا أن يصدِّقوا أنَّ الله "سيأخذ" شخصًا شابًّا مفعمًا بالحيويَّة مثله ينتظرُه مستقبلُ خدمةٍ مشرقٌ. في الواقع، صارَ أقربُ المقرَّبين إليه مقتَنِعين بأنَّه سيُشفى حتَّى إنَّهم قرَّروا بعد موافقتِه أن يمارسوا خطوةَ إيمانٍ ويُخرجوه من جهاز التنفُّس الاصطناعيّ. في غضون أسبوعَين تُوُفِّيَ والدي. نشأتُ يَتيمَ الأب تحت تلك السحابة من الصَّلاة غير المستَجابة.

في وقتٍ لاحق، بدأتُ أكتبُ مَقالاتٍ بعنوان "الدراما في الحياة الحقيقيَّة" لمجلَّة ريدرز دايجست (Readers Digest)، أُصوِّر فيها شخصيَّاتٍ نجَتْ من

المأساة، وكنتُ في ذلك الوقت قد صرتُ صحافيًا شابًا في العمر الذي تُوُفِّيَ فيه والدي تقريبًا. مرّةً تلوَ الأُخرى، كنتُ أسمعُ من الأشخاص الذين أجريتُ معهم مقابلةً بأنَّ المسيحيِّين "جعلوا الأمرَ أسوأ" من خلال تقديمِ مشورةٍ مُتناقِضةٍ ومُربِكة. إنَّ الله يعاقبُك. كلّا بل هو الشّيطان! لا هذا ولا ذاك. لقد ابتَلاك الله بهذا بدافع المحبّة وليس عقابًا لك؛ لأنّك اختِرْتَ لتُظهِرَ الإيمانَ في حياتك. كلّا، مشيئة الله لك أن تُشفى.

لم يكن لديَّ أدنى فكرةٍ عن كيفيّةِ الردِّ على هؤلاء الناس، وكنتُ أنا في الحقيقة محتاجًا إلى إجاباتٍ لنفسي أيضًا. عندما كنتُ أواجهُ سؤالًا مُربِكًا ومحيِّرًا، كنتُ أميلُ إلى الكتابة عنه لأنَّ عمليّةَ الكتابة كانت تُتيحُ لي الفرصةَ للتوجُّه إلى الخبراء والمكتَبات والكتاب المقدَّس بحثًا عن أجوبة. ونتيجةً لذلك، كتبتُ كتابي الحقيقيَّ الأوَّل في سنِّ السابعة والعشرين: **"أين الله عندما أتألَّم"** *(Where Is God When It Hurts)*.

ورُغم أنّي كتبتُ حولَ العديد من المواضيع الأُخرى، فإنَّ هذا السؤال الذي خيَّم على طفولتي وهَيمنَ على بدايات مهنتي في الكتابة لم يَغِبْ قَطّ. لا أزال أتلقّى سيلًا مستمرًّا من ردود الفعل من أناسٍ دمَّرهم الألم والمعاناة. منذ فترةٍ قريبة، أخرجتُ جميعَ الرسائل التي تلقَّيتُها من أشخاصٍ آخرين كانوا يعانون بسبب السؤال نفسه- أكثر من ألف رسالةٍ. عندما قرأتُها ثانيةً تذكَّرتُ أنَّ الألم يُمثِّلُ خلفيّةً ثابتةً لحياة كثيرين. يتعايَشُ بعضُ الناس مع المرض أو الألم الجسديِّ المزمن، أو مع لعنةِ مشاعر الوَحدة بينما يُعانونَ الاكتئاب. ويغمُرُ الحزنُ المستمرُّ قلوبَ آخرين نتيجةَ قلقهم على أحبّائهم: شريكُ زواجٍ يصارِعُ الإدمان؛ أولاد يسلكون طريقًا يؤدّي إلى دَمارهم؛ أحَدُ الوالدَين يعاني مرضَ الزهايمر. وفي بعض أجزاء العالم، يعاني المواطنون العاديُّون يوميًّا الفقرَ والظُّلمَ.

في إحدى الرسائل التي تلقَّيتها، عبَّرَتْ فتاةٌ في السادسةَ عشرةَ بوُضوحٍ عن أحَدِ الأسئلة الأكثر إلحاحًا، وكانت تدرسُ التَّحليل الجنائيَّ لمواصَفات الجاني:

> كنتُ أدرسُ جرائمَ القتل. واطَّلعتُ على حالِ الضحايا وأُسرهم والآلام المبرِّحة التي احتَمَلوها والتي لا يمكن تخيُّلُها. أنا لا أتحدَّثُ بشأن الشُّهَداء أو المُرسَلين الذين عرَّضوا حياتَهم بمَحْضِ اختيارهم للمَخاطر من أجل إيمانهم، بل بشأن الضَّحايا المطمئنِّين- ضحايا الجرائم الجنونيَّة. أنا أومن بأبٍ سماويٍّ يُحبُّ أولادَه ويتمنَّى الخيرَ لنا جميعًا. ورُغمَ أنِّي لا أومنُ بأنَّ الله جعلَ هذه الأمور تحدُثُ لهؤلاء الأشخاص، فإنَّ صراعي مع إيماني يدورُ حول السبب الذي جعلَ الله لا يتدخَّل في حين كان في وُسعِه أن يساعدَهم. لذا سؤالي هو التالي: إذا لم يحمِ الله هؤلاء الناس والأطفال الأبرياء الذين تعرَّضوا للتَّعذيب (في حين أنَّ بعضَهم حتَّى صَرَخوا إلى الله ليُخلِّصهم)، كيف يكون لديَّ إيمانٌ بأنَّ الله سيَحميني؟ أنا أريدُ أن أومنَ، لكنِّي أشعرُ كما شعرَ الرَّجُلُ في الكتاب المقدَّس الذي قال ليسوع: "أُومنُ يا سيِّد، فأَعِنْ عدمَ إيماني".

ويعودُ السؤال

كان لي بعضُ التجارب الشخصيَّة مع الألم- كسورٌ في العظام، عمليَّات جراحيَّة ثانويَّة، حادث سيَّارة هدَّد حياتي- لكنِّي تعلَّمتُ أكثرَ من ذلك بكثيرٍ من خلال الاستماع إلى قصص الآخرين. عندما كانت زوجتي تعملُ مرشدةً دينيَّة في

مركَزِ رعاية المحتَضَرين، كانت تسرد كثيرًا الأحاديثَ التي تبادلَتْها مع العائلات التي صارَتْ قادرةً على تقبُّلِ الموت. كنَّا نتناولُ الطعامَ مُتبِّلًا بالدُّموع. وبصفتي صحافيًّا، كنتُ أستمعُ إلى قصصٍ مُفجِعةٍ من آخرين كُثُر: والدَين حزينَين على انتحار ابنهما المبتَلى بالمثليَّة الجنسيَّة، راعي كنيسةٍ يتحمَّلُ بشكلٍ مستمرٍّ نوباتِ مَرَض تصلُّب العضل الجانبيّ الضموريّ (Amiotrophic Lateral Sclerosis)، ومسيحيِّين صينيِّين يعيشون مرَّةً أُخرى وحشيَّةَ الثَّورة الثقافيَّة.

لأنِّي أُعاودُ التطرُّقَ باستمرارٍ إلى مَوضوع المعاناة، يُطلَبُ منِّي في بعض الأحيان أن أتحدَّثَ بشأن السؤال المطروح في كتابي الأوَّل: "أين الله عندما أتألَّم"، لن أنسى اليومَ الذي أجريتُ فيه جولةً على النُّصُب التذكاريَّة البديلة المقامة، مثل الزُّهور البرِّيَّة في الحَرَم الجامعيّ لجامعة ڤيرجينيا للتكنولوجيا (Virginia Tech)، ثمَّ وقفتُ أمام ألفِ طالبٍ، يا إلهي، كانوا شبابًا صغارًا بوُجوه سلخَها الحزن والألم على فقدان ثلاثة وثلاثين من زملائهم وأساتذتهم. أو مشهدٍ غريبٍ مماثلٍ في العام التالي عندما كنتُ أعتزم التحدُّث بموضوع لا علاقةَ له بمدينة مومباي (Mumbai) الهنديَّة، إلى أن وقعَ الهجومُ الإرهابيُّ على فندق تاج محل وغيره من المواقع، ممَّا اضطرَّني إلى تغيير المكان وتغيير الموضوع- العَودة ثانيةً إلى السؤال الذي لا يغيب.

في سنة ٢٠١٢م، تحدَّثتُ إلى مجموعاتٍ بشأن هذا السؤال ثلاثَ مرَّاتٍ في أكثر الأحوال ترويعًا. تَلَتْ إحدى المرَّات كارثةٌ طبيعيَّةٌ مأساويَّة؛ وإحداها جرَتْ في مدينةٍ دُمِّرت بسبب الحرب، وثالثةٌ كانت الأقربَ إلى حيثُ أُقيم، وكانت الأكثرَ إثارةً للمشاعر بالنِّسبة إليَّ.

في آذار/مارس وقفتُ أمام رعيَّة كنائس إقليم توهوكو (Tohoku) في اليابان

في الذكرى الأولى للتسونامي الذي ضربَ الأرضَ بسرعةِ طائرةٍ نفّاثة مقطّعًا قضبانَ سكّة الحديد كأنّها عيدانٌ رفيعة، كما بعثرَ السُّفنَ والحافلات والبيوت، بل حتّى الطائرات عبر المشاهد الطبيعيّة المدمّرة. في أعقاب ذلك؛ وبوفاة ١٩,٠٠٠ شخص، وانجراف قرى بأكملها إلى البحر، فإنّ هذه الأمّة العَلمانيّة المنشغلة، التي لم يكُنْ لديها الوقت عادةً لطَرْح أسئلةٍ لاهوتيّة، لم تفكّر إلّا في هذا السؤال.

وفي تشرين الأوّل/أكتوبر، تحدَّثتُ بشأن السُّؤال في سراييڤو (Sarajevo)، وهي مدينة لم يكن فيها طَوالَ أربع سنوات تدفئة أو وقود أو كهرباء، كما توافرَ فيها القليل من الطعام والماء، في حين كانت تعاني أطوَلَ مدّة حِصارٍ في الحروب الحديثة. لقي عشرةُ آلاف من المقيمين فيها حتفَهم من وابلٍ يوميٍّ من طلقات القنص وقنابل الهاون التي سقطت من السماء مثل البَرَد. قال لي أحد الناجين: "إنَّ أسوأ ما في الأمر أنّك تعتادُ الشَّرّ. فَبِمُرور الوقت، يتوقَّفُ المرءُ عن الاهتمام بما يجري. إنّك تحاوِلُ فقط أن تبقى حيًّا".

في أواخر عام ٢٠١٢م، قبلتُ أكثرَ المَهامّ صعوبةً على الإطلاق، ليس بالنِّسبة إلى كمّ المعاناة- وهل يمكن أصلًا تحديد حجمها؟- بل بالنِّسبة إلى شدَّة الرُّعب الهائل والحزن العميق. وفي عطلة نهاية الأسبوع بعد عيد الميلاد خاطبتُ مواطني نيوتاون (Newtown) في ولاية كونكتيكت (Connecticut)، وهي بلدة تترنّح من ذَبْح عشرين طالبًا وطالبةً في الصفّ الأوّل الابتدائيّ وستّةٍ من المعلّمين والموظّفين، وهي جريمة نُفِّذَتْ دون أدنى حسٍّ إنسانيّ.

عبَّر سائقُ سيّارة الإسعاف عن الحالة النفسيّة فقال: "نحن جميعًا نعمل متطوّعين في فريق الإسعاف والإطفاء. شاهدتُ أمورًا فظيعة، لكنّنا لا

نتدرَّبُ لمواجَهةِ حالات كهذه- لا أحَدَ يفعل هذا. زوجتي معلِّمةٌ في مدرسة ساندي هوك (Sandy Hook) الابتدائيَّة. كانت تعرفُ جميعَ الأولاد العشرين بأسمائهم، فضلًا عن المدرِّسين. كانت على بُعدِ ثلاثِ خطواتٍ وراءَ المديرة دَون هوكسبرنغ (Dawn Hochsprung)، عندما صرخت دَون «تراجَعي، إنَّه قنَّاص!» بعدَ أنِ اختبأتْ في أثناء المذبحة، اضطُرَّت إلى المرور بين أجساد زملائها في الممرّ. وكذلك أجساد الأطفال...".

صمتَ قليلًا ليُسيطرَ على صَوتِه ثمَّ تابع: "يختبرُ الجميعُ الحزنَ والألم في مرحلةٍ ما- في أسوأ الحالات، الحزن الرهيب من جرَّاء فقدان طفل. وأنا أرى تأثيرَه في دَوري بصفتي أوَّلَ متلقٍّ للحَدَث، لا سيَّما بعد حالاتِ الانتحار. يتعايشُ المرءُ مع الحزن والأسى كما لو كانَ في فقَّاعة، ثمَّ يدخلُ العالم ثانيةً بالتَّدريج فحسب. تذهبُ إلى البقَّال، ثمَّ تعودُ ثانيةً إلى العمل. في نهاية المطاف، يسيطرُ عليك ذلك العالم الخارجيُّ أكثرَ وأكثرَ، ويبدأ الحزنُ في الانكماش. نحن هنا في نيوتاون مجتمعٌ صغير. إنَّ كلَّ مكانٍ نذهبُ إليه يذكِّرُنا بما حدث. نذهب إلى المتجر فنرى أمورًا تذكِّرُنا بالضَّحايا. نسير في الشارع فنرى علاماتٍ على شرفاتِ منازلِ الذين فقدوا طفلًا. لا يمكنُنا أن نتجنَّبَ هذا. إنَّ الوضعَ هو كأنَّ ناقوسًا زجاجيًّا وُضعَ فوقَ البلدة بعد تفريغه من الأوكسجين. لا نستطيعُ أن نتنفَّس ونعبِّرَ عن الحزن".

أتَتْ دَعوَتي إلى نيوتاون من صديقٍ عرفتُه لفترةٍ طويلة، وهو إنكليزيٌّ يُدعى كلايف كالفِر (Clive Calver). كان يرأسُ جمعيَّة "شبابٌ للمسيح" (Youth for Christ) في سبعينيَّات القرن الماضي عندما كنتُ محرِّرًا في مجلَّة كامپس لايف (Campus Life) التابعة لجمعيَّة شباب للمسيح. ذهبَ كلُّ واحدٍ في طريقه، هو إلى أعمال الإغاثة، وأنا انطلقتُ لأمارسَ مهنتي بصفتي كاتبًا

حُرًّا. يرعى كلايف الآن كنيسةً مزدهرةً تضمُّ ٣٥٠٠ عضوٍ تقعُ على مشارف نيوتاون. قال لي في الأسبوع الذي سبقَ عيدَ الميلاد: "يبدو الأمرُ كأنّي كنتُ أتدرَّبُ طَوال حياتي لِلَعبِ هذا الدَّور. في هيئة الإغاثة العالميّة (World Relief) كنتُ على رأس فريق الاستجابة للكوارث الذي يضمُّ ٢٠,٠٠٠ شخصٍ في جميع أنحاء العالم. لكنَّ الحيَّ الذي أُقيم فيه وأعضاء كنيستي هم الآنَ مَن تأثَّر بشكلٍ مباشر. جميعُهم يطرحون السؤالَ الذي كتبتُ عنه منذ سنوات: «أين الله عندما أتألَّم؟» هل يمكنُكَ أن تأتي وتتحدَّث إلينا؟".

عيدُ الميلاد المكبوت

كان عيد الميلاد سنة ٢٠١٢م بالنِّسبة إليَّ لا يُشبِهُ أيَّ عامٍ آخر. كانت وفاةُ والدي في ١٥ كانون الأوَّل/ديسمبر تُخمِدُ دائمًا روح الميلاد في منزل طفولتي، والآن ملأ إطلاقُ النار في ١٤ كانون الأوَّل/ديسمبر العطلةَ بالكآبة لأُمَّةٍ بأكملها. شعَرْنا بصدمةٍ قاسية. ما الخطأ فينا وفي أُمَّتنا؟ لا يستطيعُ أحَدٌ أن يفهمَ جيِّدًا كيف أنَّ شابًا من خلفيَّةٍ متميِّزة يشقُّ طريقَه داخل مدرسة ويقتل بشكلٍ منهجيٍّ عددًا من طلَّاب الصفِّ الأوَّل المصابين بالهَلَع.

شاهدتُ تقاريرَ الأخبار ودرستُ الخطَّ الزمنيَّ دقيقة بدقيقة لما حدثَ في المدرسة الابتدائيَّة يَومها. قرأتُ على الإنترنت مواصَفاتِ كلِّ طفلٍ من الأطفال المتوفَّين، وفي أثناء ذلك، صرتُ أعرفُهم بالاسم فضلًا عن الوجه: كاثرين بشعرها الأحمر الفاقع، ودانيال بابتسامته التي تُظهر الفراغات ما بين أسنانه، وإميلي بعَينَيها الزرقاوَين المضيئتَين، وجيسي بابتسامتها الماكرة. قرأتُ عن حيواناتِهم الأليفة وهواياتهم والحِيَل التي يستخدمونها مع إخوتهم،

والأطعمة التي تولِّد الحساسيَّة لديهم، والشخصيَّات الرياضيَّة المفضَّلة لديهم. إنَّ الوفاة في عمر السادسة أو السابعة لا يزال يترك علاماته.

إنَّ ما سمعتُه في نيوتاون في عطلة نهاية الأسبوع تلك- القصص، الأسئلة، صرخات الارتباك والاحتجاج- أثارَتْ ذكرياتِ رُدودِ فعلٍ أُخرى للمعاناة التي كنتُ قد واجهتُها عبر السنوات. لماذا تقعُ الأمورُ السيِّئة؟ لماذا يسمحُ الله للشرِّ بأن يأخذَ مجراه؟ ما الأمرُ الجيِّد الذي يمكنُ أن يَنتُجَ عن مثل هذه الأحداث؟ لم يتوقَّفْ صراعي مع هذه الأسئلة منذ كتابي الأوَّل، وكنتُ مُضطرًّا إلى مواجَهةِ هذه الأسئلة ثانيةً عندما كنتُ أتحدَّثُ إلى أفرادِ مجتمع نيوتاون.

عندما توجَّهتُ إلى ولاية كونكتيكت، جعلَ الناشرُ كتابي "أين الله عندما أتألَّم" متاحًا للتَّحميل المجَّانيِّ لمدَّة محدودة. وضعتُ الرابط على الفيسبوك، وأصدرَ الناشرُ بيانًا صحفيًّا، لكنَّه لم يُعلنْ عن العرض. توقَّعنا بضعَ مئاتٍ من ردود الفعل، ربَّما ألفًا. بدلًا من هذا، وكما علمنا في ما بعد، حمَّل أكثرَ من مئة ألف شخصٍ الكتاب في غضون بضعة أيَّام. من الواضح أنَّه كانَ لدى الآخرين السؤالُ ذاته. وهكذا قرَّرتُ أن أضَعَ جانبًا مشاريعَ الكتابة الأُخرى وأعودَ إلى تَناوُل السؤال الذي استطلعْتُ تفاصيلَه قبلَ أكثرَ من ثلاثة عقود.

تباطأ مرورُ الشتاء في مرتفعات كولورادو (Colorado) بينما كنتُ أكتب. وحتَّى نيسان/أبريل ٢٠١٣م، كنتُ أستطيعُ أن أرى من خارج نافذتي مشهدًا من الجمال المذهل: أشجارٌ دائمةُ الخُضْرة مكسوَّةٌ بالثَّلج المتساقط حديثًا، وقد صبغَتْها أشعَّة شمسِ الصباح بلَونٍ ذهبيّ، ترفعُ هامتَها لتواجِهَ سماء كولورادو التي تحاكي بِلَونها مياهَ المحيطات الاستوائيَّة. ومن ثمَّ كنتُ أستجمع وجوهَ الكَرْب والعذاب التي رأيتُها في اليابان وسراييڤو ونيوتاون.

فجأةً، انضمَّتْ إليهم مجموعةٌ جديدةٌ من الوجوه. في ١٥ نيسان/أبريل، أفسدَ مهاجِران يومَ الفرح والانتصار في بوسطن بزرعهما قنابلَ قُرْبَ خطِّ النهاية لماراثون بوسطن. هذا السباق الذي انطلَقَ بشكلٍ كئيب بستٍّ وعشرين ثانيةً من الصمت تكريمًا لضحايا نيوتاون، انتهى بمأساةٍ لا تُوصَف. وُضِعَت المدينة الخامسة في البلاد من حيث الحجم تحت التقييد بينما كان رجال الشرطة يبحثون عن الإرهابيَّين اللذَين قتلا ثلاثةَ أشخاصٍ وجرحوا المئات. بعد يومَين انفجرت منشأة للسَّماد الكيماويِّ في بلدة وست (West) في تكساس، ممَّا أسفر عن مقتل عشرةِ إطفائيِّين وخمسة آخرين، وهي كارثةٌ نالَتْ تغطيةً إخباريَّةً قصيرةً بسبب المطاردة الواسعة النِّطاق التي كان تجري في بوسطن. لاحقًا في الأسبوع ذاته، ضربَ زلزالٌ مقاطعة سيشوان (Sichuan) في الصين وقتلَ مئتَي شخصٍ تقريبًا وألحقَ الضَّررَ بأكثر من ثمانيةِ آلاف. من الواضح أنَّ السؤالَ المُثارَ عام ٢٠١٢م لم يَغِبْ في عام ٢٠١٣م.

يمكنني أن أكتبَ في الواقع عن هذا السؤال في أيَّةِ سنةٍ كانت؛ لأنَّنا نعيش في كَوكبٍ هشٍّ يشوبُه المرضُ والفيضانات والجفاف والزلازل والحرائق والحروب وأعمال العنف والإرهاب. وسواء كانت المعاناة مأساويَّة أم عاديَّة، فإنَّها تتربَّصُ بنا من قرب. في كلِّ يومٍ أتسلَّم تقريرًا من موقع www.caromgbridge.com بشأن صديقٍ مرتبطٍ بآلةِ حِفْظِ الحياة في المستشفى، أو آخرُ يتعافى من سكتةٍ دماغيَّةٍ أو يُصارع السرطان. ما الذي يهدفُ إليه الله في عالمٍ كهذا؟

أنا أدركُ جيِّدًا أنَّه لا يوجدُ كتابٌ يستطيع أن "يحلَّ" مشكلة الألم. لكنِّي أشعر بأنِّي مجبَرٌ على مشاركة الآخرين ما تعلَّمتُه من أرض المعاناة. إذا كانت لدى المسيحيِّين أخبارٌ سارَّةٌ يشاركونها- رسالةُ رجاءٍ أو تعزيةٌ ما لعالَمٍ جريح- فلا بدَّ أن تبدأ هنا.

الجزء ٢

أريدُ أن أعرفَ السبب

أحببتُ اليابان منذ زيارتي الأولى لها في عام ١٩٩٨م. عندما تتحرَّكُ الطائرة باتِّجاه البوَّابة، ينحني عمَّالُ الحقائب وعمَّالُ التنظيف جميعهم تحيَّةً للمسافرين الواصلين. وفي الفندق، يُهرعُ حاملو الحقائب ليَحملوا حقيبتَك، ثمَّ يرفضون بأدبٍ كلَّ الإكراميَّات. وعندما تذهبُ إلى محطَّةِ وقود، يُحيط بك عاملون، غالبًا من النساء، يلبسون قفَّازاتٍ بَيضاء ليُعبِّئوا سيَّارتك بالوقود ويغسلون نوافذها ومصابيحها الأماميَّة. لكنْ كيف يحافظون على ملابسهم نظيفةً تمامًا؟ وعندما تغادرُ المكان، ينحنون لك انحناءةً جليلة ويودِّعونك بتَلويح أيديهم كما لو أنَّك قدَّمتَ إليهم معروفًا بالسَّماح لهم بخدمتك. يستخدمُ سائقو الحافلات وسيَّارات التاكسي دقائقَ الفراغ ما بين تحميل الركَّاب لتَلميع واقيات الصَّدمات على مركباتهم، ولمسح المقاعد وتنظيفها. وأنت لا تسمعُ إلَّا القليلَ من أبواق السيَّارات حتَّى في مدينةٍ مزدحمةٍ مثل طوكيو، حيث إنَّ السائقين ينتظرون بصبرٍ دَورَهم عند تقاطُعات الطُّرُق.

عدتُ إلى اليابان ثلاثَ مرَّاتٍ منذ ذلك الحين بزياراتٍ استَضافني فيها ناشرُ كتبي اليابانيّ. إنَّ سوقَ الكتب المسيحيَّة هي سوقٌ صغيرة؛ حيث إنَّ

١٪ فقط من الشعب اليابانيّ يحسبون أنفسَهم مسيحيّين، وغالبًا ما يكونُ عدد المتعبّدين في معظمِ الكنائس ما بين عشرين وثلاثين متعبّدًا فقط. ورُغمَ سَعْيِ بعض الزّائرين إلى زيارةِ الكنائس لممارسة التحدُّث بالإنكليزيّة أو للاستماع إلى موسيقا غربيّة، فإنّ وُجودَ عضوٍ جديدٍ هو أمرٌ نادرُ الحدوث. يحترمُ اليابانيّون الديانة المسيحيّة- حيث إنّ بعضًا من أفضل الروائيّين لديهم كَتبوا مُجاهِرين بإيمانهم- لكنّهم ينظرون إليها بوصفها ديانةً غربيّةً مستَورَدة. في مجتمعهم الذي يتّصف بالتكنولوجيا المتقدّمة، يبقى الدّين حيًّا بشكلٍ رئيسيٍّ بوصفه شيئًا صارعَ ليَبقى من البوذيّة أو ديانة الشنتو، وليس بوصفه جزءًا نابضًا بالحيويّة.

قبل أن أتحدَّث في أيّة كنيسةٍ أو أمام تجمُّعٍ لسكّانٍ محلّيّين، كنتُ دائمًا أقابلُ المُضيف لتناوُل الشاي اليابانيّ في مكتبه حيث كنّا نستمتعُ بتناول حُلْوَياتِ عجينةِ الفاصوليا، وتبادُلِ الهدايا. وكان الموظّفون هناك يراجعون بدقّةٍ بالغة برنامَجِ ما كان سيحدث: الترنيمة لمدّة ثلاث دقائق وأربعين ثانية؛ الإعلان لدقيقتَين؛ العِظة لسبع وعشرين دقيقة؛ والخاتمة عشرون ثانية. لستُ متأكّدًا إذا ما كانت هناك كلمةٌ مرادفةٌ لكلمةِ العفويّة في اللغة اليابانيّة.

عندما أفكّر في اليابان تبرز أمامي كلمتان: الترتيب والجمال. طوّرَ اليابانيّون على مرِّ القرون مجتمعًا يتّصفُ بالطُّقوس الشكليّة على نحوٍ كبير. إنّهم ينحنون بعضهم لبعضٍ علامةً على الاحترام، كما أنّهم ينتظرون دائمًا أن يقفَ الشخصُ الأكبر سنًّا أوّلًا. بصفتك زائرًا، أنت تتعلّمُ أن تقبلَ بطاقة عمل عبر إمساكها بكلتا يدَيك أمامك، والنظر إليها بإمعان ودقّة لتُظهرَ اهتمامك. كما لا ينبغي أن تُظهِرَ نعلَ حذائك أمامَ الناس، ويجب ألّا تضعَ يدَيك في جيبَيك. عندما تدخلُ كنيسةً أو بيتًا ما، عليك أن تخلعَ حذاءك وتنتعلَ شبشبَ الزائرين.

ويشملُ المرحاضُ مجموعةً أُخرى من الطقوس. قبل الدخول إليه، تخلعُ شبشبَ المنزل وتنتعل شبشبَ المرحاض، وهي نماذج بلاستيكيَّةٌ مزخرفةٌ برسوم كاريكاتوريَّة لميكي ماوس أو هلو كيتي (Hello Kitty). سمعتُ عدَّةَ مرَّاتٍ قصَّةً ممتعةً عن أحَدِ الوجهاء الأجانب الذي نسي استبدال الشبشب وسار على المنصَّة بقبَّعةِ الأكاديميِّين ومعطفهم، بينما كان ينتعلُ شبشبَ المرحاض. والخزانة ذات الأرجل القصيرة تبدو مثل قمرة قيادة الطائرة في طائرةٍ نفَّاثةٍ مع مجموعةٍ من أزرار الضَّبط لمدِّ غطاء المقعد، أو تدفئته، أو لغَسْل جسدك وتجفيفه، ووظائف كثيرة لم أجرؤ قطُّ على تجرِبتها.

لكنْ يكمنُ وراء هذه الأمور الشكليَّة تقديرٌ عميقٌ للجَمال. يُقدَّم الشاي في فناجينَ من الخزف الصينيِّ الدَّقيق، فهُم لا يستخدمون بتاتًا الفناجين المصنوعة من البوليستيرين الممدَّد أو البلاستيك، والزهور النَّضرة تزيِّن المائدة. يرتدي أهلُ المدينة أحدَثَ الأزياء؛ في بعض المناطق الريفيَّة، لا تزالُ بعضُ النساء يرتَدين الكيمونو بكلِّ تفاصيله. تُمضي بعضُ ربَّات البيوت ساعةً كلَّ صباحٍ في إعداد عُلَبٍ خشبيَّةٍ مزخرَفة يوضَعُ فيها طعامُ الغذاء لأولادهنَّ تلاميذ المدارس، وفي ترتيب حُصَصٍ من المأكولات البحريَّة والأرزِّ واللحم والخُضَر في نماذج ملوَّنةٍ تُشبِهُ شخصيَّاتٍ كرتونيَّةً أو حيواناتٍ أو معالمَ مشهورة. إنَّ كلَّ بيتٍ يابانيٍّ محظوظٌ حتَّى إنَّه يحصلُ على قطعةِ أرضٍ يجعلُ منها حديقةً صغيرةً أو بركةَ أسماك. وحتَّى اليوم، أجِدُ أنَّ من المستحيل التخلُّص من بطاقات عيد الميلاد من اليابان، فهي أعمالٌ فنِّيَّةٌ دقيقةٌ تُبرزُ زهورًا متفتِّحةً أو تصاميمَ الكيمونو. غير أنَّه في زيارتي الأخيرة إلى تلك الدولة المتميِّزة والمُبهِجة، وجدْتُ ما هو نقيضُ التَّرتيب والجمال. في يومٍ واحدٍ مخيف، اجتاحَتْ مَوجةُ التسونامي أكثر ما يثمِّنه المجتمع اليابانيّ، واستبدلت به الطِّين والخَرابَ والصَّدمات النفسيَّة.

أوّلًا الهزّة، ثمّ الموجة

يمكنُكَ الاستعدادُ لإعصارٍ يتقدّمُ نحوك من خلال تَسمير ألواحٍ خشبيّةٍ على النوافذ أو بِوَضع مصراعَين للنّافذة، أو الإخلاء، إذا دعَتِ الضّرورة إلى ذلك. تعطي السماء المُنذِرة بالسُّوء وتنبيهات الخطر المتعلّقة بالحالة الجوّيّة ما لا يقلُّ عن عدّة دقائق قبل وُصول الإعصار. لكنّ مَوجةَ التسونامي يمكن أن تتدفّقَ في يَومٍ ساطعٍ ومُشمسٍ وفي لمحِ البَصَر، ودونَ سابِقِ إنذار، حيثُ تهتزُّ الأرضُ وبعُنف.

في ١١ آذار/مارس ٢٠١١م، وعند الساعة ٢,٤٦ من بعد الظهر، ضربَتْ هزّةٌ أرضيّةٌ بقوّة ٩,٠ درجات على مقياس ريختر الشاطئَ الشرقيَّ لليابان لمدّة تتراوحُ ما بين ٣ و٥ دقائق. انهارَتِ الطُّرقُ وتشقّقَتِ الجسورُ وانقلبَتْ خزائنُ الكتُبِ وانهارَتْ بعضُ الأبنية. وكان الزلزال من القوّة بحيثُ إنّه صدمَ أكبر جزيرةٍ في اليابان، بصورةٍ لا تُصدَّق، ودفعها نحو مترين ونصف المتر باتّجاه أميركا الشماليّة! بقيَ كلُّ شيءٍ ساكنًا لمدّة خمسٍ وأربعين دقيقة حيث التقطَ المقيمون أنفاسَهم، وبدأوا يتفقّدون الأضرار.

ثمّ أتَتِ الموجة.

جدارٌ من المياه، هو الشكل الأوّلُ الذي تكوّن بعيدًا في عُمْقِ المحيط من بؤرة الزلزال، واندفع بسرعة ٨٠٠كم/ساعة وهو يتّجه بسرعةٍ نحو اليابسة. خُسِفَ إقليمُ توهوكو (Tohoku) الساحليُّ بمقدار نصف مترٍ تقريبًا فاتحًا بوّابةً واسعةً للمَوجة المندفعة، بحيث اصطدمَتِ التسونامي بجدران البحر الواقية مثل عملاقٍ يدوس حاجزًا إسمنتيًا. كانت أفلام الڤيديو التي صوّرها شهود عِيان بهواتفهم الذكيّة (بعضُها استُعيدَ من الجُثَث) تُشبِهُ مناظرَ المؤثّرات الخاصّة من أحَدِ أفلام الرعب: قُذِفَتِ السفنُ والمنازل والشاحنات مثل ألعاب

الأطفال، وانغمرَ مطارٌ حديثٌ فجأةً تحت المياه، وانفجرَ برجُ مُفاعلٍ نوويٍّ مطلِقًا سحابةً سوداءَ كثيفة.

سمعَ أحَدُ الأساتذة في مدرسةٍ ثانويَّةٍ بريطانيَّةٍ صفَّارات الإنذار، ونظر بعيدًا إلى المحيط، ورأى ضبابًا هائلًا. قال: "لا شَكَّ أنَّ هذا من رذاذ التسونامي، لكنَّه بدا مشهدًا مذهلًا وغريبًا إلى حدٍّ كبير. كان يبدو كما لو كان هناك حريقٌ هائلٌ في المحيط، وفَوقَه كانت تتدحرجُ سُحُبٌ بيضاءُ ضخمةٌ من الدُّخان. في داخله استطعْتُ أن أرى آلافَ القطع العائمة. لا شكَّ أنَّها كانت مبانيَ وسفنًا وسيَّاراتٍ، لكنَّها كانت تبدو صغيرةً جدًّا. كان كلُّ شيءٍ مُرعِبًا حتَّى إنَّ دماغي لم يستَطِعْ تخيُّله". قادَ تلاميذَه الاثنين والأربعين إلى برِّ الأمان، لكنَّ أكثرَ من مئةِ طالبٍ آخرَ في المدرسة لقوا حتفَهم في ذلك اليوم بينما كانوا، بدافع الواجب، ينتظرون التَّعليمات من معلِّميهم.

كان أحَدُ القساوسة يتفحَّصُ الأضرارَ التي خلَّفَها الزلزالُ في بيته عندما تلقَّى رسالةً محمومة على الهاتف من ابنته في طوكيو: "اهرب، اهرب، اهربْ". بدَتِ الرسالةُ غريبة في ذلك الوقت خلال فترة الخمس والأربعين دقيقة الفاصلة من الهدوء، لكنْ دون كهرباء، لم يكن لديه مصدرٌ للأخبار من المذياع المحلِّيِّ، فقرَّر أن يمتثلَ لنصيحتها بالإخلاء. لكنَّه انجرفَ في مَوجةٍ داخل سيَّارته مثل راكب الأمواج وسقطَ وسط حقلٍ من الحطام حيث بقي في سيَّارته لمدَّة يومَين قبل أن يَعثُر عليه عمَّال الإنقاذ.

هربَ قسٌّ آخرُ هو وزوجتُه إلى أرضٍ مرتفعةٍ بعد الزلزال. لكنَّ ريحًا ثلجيَّةً هبَّتْ بينما كان التسونامي يقترب، ولم يستطيعا أن يريا أيَّ شيءٍ لبضع دقائق من مكانهما المرتفع الآمن. سمعا الموجةَ وهي تقترب ثمَّ تندفعُ

رجوعًا إلى البحر حاملة أجسادًا بشريَّةً وأطنانًا من الحطام، فكانت حركة الماء المرتدَّة بخطورة الموجة الأوَّليَّة ذاتها. اندفعَتِ الموجة وتراجعت سبعَ عشرةَ مرَّةً مثل الماء المتناثر في حوض الاستحمام. في ستَّ عشرةَ منها سمعا صرخاتِ تطلُبُ المساعدة، ثمَّ سمعا أخيرًا صوتَ تفريغ قويٍّ كما لو كان صادرًا من مصرفٍ ضخمٍ، ثمَّ تلت ذلك فترةُ صمت. عندما عبرَتْ غيمةُ الثلج، أطلَّا من الأعلى على حيٍّ دُمِّر بشكلٍ كامل، ولم يبقَ حتَّى بناءٌ واحد. كان هناك فقط صليبُ كنيستهما منتصبًا بزاويةٍ غير طبيعيَّة مثل عظمٍ مكسور. وكان هناك بضعُ أشجارٍ متناثرة على الشاطئ تحرس ما كان في اليوم السابق غابةً كثيفة.

عندما وجدَتِ الموجةُ العملاقةُ خليجًا لها مخبَّأً بين التلال، زادَتْ من سرعتها وقوَّتها بينما تدفَّق مقدارٌ هائل من المياه في الفتحة الضيِّقة. وعلى الأرض المستوية، وصلَ ارتفاعُ الموجة من نحو ٣ أمتارٍ إلى تسعة أمتار؛ وفي خلجان التلال ارتفعَتْ إلى علوٍّ لا يمكن تصوُّره بارتفاع بناء من اثني عشر طابَقًا. وإذا ما أخذنا في الحسبان تاريخَ اليابانيِّين مع أمواج التسونامي، فإنَّ لديهم مواقع إخلاءٍ منظَّمة تنظيمًا جيِّدًا- مدارسُ، ومستشفياتٌ، ومراكزُ لِكِبارِ السِّنِّ- هُرِعَ إليها كثيرون من المقيمين بحثًا عن مأوى يحميهم عندما انطلقَتْ صفَّارات الإنذار. لكنْ لم يتخيَّلْ أحَدٌ تسونامي بهذه الضخامة. ومن المفارَقات القاسية، قضى عدَّةُ مئاتٍ منهم في المباني ذاتها التي كان الهدفُ منها هو إنقاذَهم.

في أحَدِ مراكز كبار السنِّ الذي يقعُ على هضبةٍ مرتفعة، تُوُفِّيَ سبعةٌ وأربعون مسنًّا؛ هناك اليوم كراسيُّ متحرِّكة وفُرشٌ وأثاثٌ تشكِّل جميعها في ذلك المكان ذكرى كئيبة. في المدينة ذاتها، تسلَّقَ عددٌ كبيرٌ من الأشخاص سطحَ

مركَز إخلاءٍ من ثلاثة طوابق، لكنَّ عددًا قليلًا منهم نجحَ في تجنُّبِ الانجراف من خلال التشبُّث بالقضبان وهوائيِّ التلفاز. تُوُفِّيَ في مدرسةٍ ابتدائيَّةٍ أربعةٌ وسبعون طالبًا بينما كان موظَّفو المدرسة يعمَلون على اتِّخاذ إجراءات لنَقْلهم إلى أعلى التلِّ وراء المدرسة. انطلقَ بعضُ الأولاد أحرارًا ليتدافعوا صعودًا على أرضيَّةٍ مغطَّاةٍ بالثَّلج، لكنَّ أقدامهم زلَّتْ وانزلَقوا إلى داخل فتحة الموجة المميتة.

وجهُ المأساة

بعدَ الزلزال والتسونامي بسنةٍ واحدة بالتَّحديد، أمضَيتُ بضعةَ أيَّامٍ وأنا أتفقَّد المنطقةَ المتضرِّرة مع بعض الذين يعمَلون مع ناشري اليابانيّ. لم أرَ قَطُّ مثل هذا الدمار من قرب. حتَّى بعد سنة، بدا المشهدُ جافًّا وقاحلًا كما لو كانَ من كَوكبٍ آخر. طرحتُ بضعةَ أسئلةٍ على مضيفيَّ، لكنِّي كنتُ في الغالب أحدِّقُ من خلال النافذة وأحاول استيعابَ ضَخامةِ مأساة أُمَّتِهم. لم يقُلِ الآخرون في المركَبة إلَّا القليل، ولم أستطعْ أن أقرأ وُجوهَهم. فكَّرتُ في بَيتٍ من قصيدةٍ للشاعرة إميلي ديكنسون (Emily Dickinson) جاء فيه: "بعدَ ألمٍ كبيرٍ يأتي شعورٌ شكليّ".

كانت مشاعري أبعدَ ما تكون عن كَونها شكليَّة. بعد أن قمتُ بجولةٍ في شبه الجزيرة المدمَّرة التي كانت معروفة في ما مضى بقُرى الصيد الغريبة فيها، كان عليَّ أن أتحدَّث بموضوع "أين الله عندما أتألَّم" إلى حشدٍ حزينٍ في إقليم توهوكو، وفي اجتماع صلاة وطنيٍّ في طوكيو. ماذا كان يمكنُ أن أقولَ لهؤلاء الناس وأنا زائرٌ من دولةٍ أُخرى يهبطُ في خِضَمِّ آلامهم؟ معظم اليابانيِّين لا يؤمنون بالله. كيف كان يمكنُ أن أوجِّههم إلى إله النعمة والرحمة الذي تعلَّمتُ أن أحبَّه والذي بدا بعيدًا جدًّا عن هذا المشهد؟

كان اليابانيُّون المجتهدون قد أصلَحوا العديدَ من الطُّرُق، ورفعوا الطرق فوق مستوى الأرض الغارقة. أزالتْ مجموعاتٌ من العمَّال معظمَ الأخشاب وقِطَع الحجارة من ملايين الأبنية المدمَّرة. لم يبقَ واقفًا إلَّا الهياكل المتينة، أبنية أشباح بنوافذ محطَّمة وملطَّخة بالطِّين وجدران متداعية. جبالٌ مصطنعة من الرُّكام شوَّهَتْ صورةَ المشهد الطبيعيّ، كان يبلغ ارتفاع بعضها أكثر من ٢٠ مترًا، ويعادل حجمها بنايةً ضخمةً في المدينة.

قاومَتْ أجزاءٌ أُخرى من اليابان قبولَ ثلاثةٍ وعشرين طنًّا من الحطام لحَرْقها أو دفنها خشية احتوائها على ملوِّثاتٍ أو إشعاع من المحطَّة النُّوَويَّة المعطَّلة. قلتُ بِصَوتٍ مسموعٍ عندما مرَرْنا بكومةٍ أخرى من السيَّارات المسحوقة: "كم مركَبةً تحطَّمت يا تُرى؟" سحبَ زميلٌ يابانيٌّ في الحال هاتفَه الذكيَّ وحصل على الجواب من محرِّك البحث غوغل (Google): ٤١٠,٠٠٠.

عندما قُدْنا السيَّارةَ في طريقنا إلى إحدى البلدات وانعطَفْنا عند الزاوية، وجَدْنا سفينةَ شحنٍ ضخمةً يبلغُ طولُها ثلثا ملعبِ كرةِ قدم مستقرَّةً على الأساس الإسمنتيِّ لما كان في ما مضى منطقةً سكنيَّة. لم يستَطعْ أحَدٌ أن يعرفَ كيفيَّةَ إعادتها إلى المحيط الذي يقعُ على بُعد نحو ٨٠٠ مترٍ. سبعَ عشرةَ سفينةً وألفُ قاربِ صَيدٍ صغيرٍ تقريبًا جُرفَتْ إلى الشاطئ في تلك المدينة، وبقي العديدُ منها حيث أودَعَها التسونامي بشكلٍ متنافرٍ في منتصف حقل أرزّ، على سطح فندق، على سطح مستشفى.

تقيسُ محطَّةُ الأخبار ومصادرُ إخباريَّةٌ أُخرى الكوارث عبر الإحصائيَّات، وتُعدُّ كارثةُ تسونامي التي وقعَتْ عام ٢٠١١م بكلِّ المقاييس واحدةً من أكثر الكوارث تكلفةً في الأرواح البشريَّة والخسائر المادِّيَّة. لكنْ على الأرض، رأيتُ

الكارثةَ مجموعةً من القصص الشخصيَّة لا مجرَّدَ إحصائيّات. الرجل الذي شاهدَ من بناءٍ مرتفع، وهو عاجزٌ عن فعل شيء، زوجتَه وأولاده يطفون على وجه المياه في منزلهم. وعائلةٌ أخرى اصطدمَ منزلُها بجسرٍ ممَّا أتاحَ لأفراد العائلة الثمانية جميعًا فرصةَ القفز إلى برِّ الأمان. وسبعةُ موظَّفين يعمَلون في مصنع لمعالجة الأسماك، قفزوا إلى شاحنةٍ صغيرةٍ وقادوها إلى أرضٍ مرتفعة، لكنَّهم عَلِقوا في زحمةِ السير ممَّا سمحَ للتسونامي بتَحريك الشاحنة بعنفٍ مثل غَرَضٍ ما في غسّالة الثياب، ممَّا أسفرَ عن مقتل خمسةٍ منهم.

تحدَّثتُ مع رجلٍ كان يُقيم على الشاطئ قرب سينداي (Sendai)، وكان قد أمضى أربعَ ليالٍ على السطح مع زوجته. كان الطابَقُ السفليُّ مغمورًا بالماء، ولجأ الاثنان إلى تناوُلِ طعام الكلاب ليَبقَيا على قَيدِ الحياة. حاوَلَ عدَّةَ مرَّات أن يغادرَ المنزلَ لكنَّه وجدَ أنَّ من المستحيل شقَّ طريقه وسطَ المياه الشديدة البرودة والتي يصلُ ارتفاعُها إلى مستوى الصَّدر. عندما نزلَ إلى الماء أوَّل مرَّة، شعر بألمٍ حادٍّ في جنبه: كان الحطام المتساقط قد كسرَ ضلعَين من أضلاعه في أثناء الزلزال، وهي إصابة لم يلحَظْها. قال: "أذكُرُ بشكلٍ رئيسيٍّ البردَ القارس. كنَّا نرتجفُ في الثياب المبتلَّة دون تدفئةٍ أو طعامٍ منتظرين الإنقاذَ من السطح".

هناك عددٌ قليلٌ من قصص النجاة التي تُسعِدُ القلبَ والتي جلبت الأملَ في الأيَّام الأولى بعد المأساة. نجتْ جدَّةٌ في الثمانين من العمر وحفيدُها المراهقُ وظلّا على قَيد الحياة مدَّة تسعة أيّام قبل أن يُكتَشَفَ مكانُهما، كانت درجةُ حرارة جسمهما منخفضة، لكنَّهما كانا دون إصابات. ورصدَتْ طائرةُ إنقاذٍ مروحيَّةٌ رجلًا في الستِّين من عمره يعومُ على سطح منزله على بعد نحو ١٥ كم من الشاطئ. بالتَّأكيد، نحن لا نسمع سوى قصص الناجين، وبالكاد نستطيع أن نتخيَّلَ تفاصيلَ ما حدث مع التسعة عشر ألفًا الذين لقوا حتفَهم. ولم تجدْ

فِرقُ الطوارئ التي استعدَّت لمعالجة المصابين إلَّا عددًا قليلًا نسبيًّا منهم. هكذا كانت قوَّة التسونامي الذي جُرِفَ معظمُ ضحاياه بعيدًا.

ولا تزالُ هناك حتَّى الآن مشكلاتٌ ضخمة. لا تزالُ الحكومة تناقشُ أيَّة مدن ينبغي إعادة بنائها وأيُّها ينبغي هجره لأنَّها معرَّضةٌ للخَطَر. تخيِّم على المنطقة بأكملها سحابةٌ من الخوف والكآبة. كما قال لي أحَدُ المرشدين: "علمتُ أنَّ اضطرابَ ما بعد الصدمة (PTSD) هو اسمٌ مغلوط. بعد حدوث شيءٍ ما مثل التسونامي، تلك المتلازمة هي علامةٌ صحِّيَّةٌ وليسَتِ اضطرابًا. ومَن لا يشعرُ بالصَّدمة والإجهاد؟" تشعرُ السلطاتُ بالقلق بشأن معدَّلِ انتحار اليابانيِّين الذي هو الآن من بين الأعلى في العالم.

وهناك أيضًا فوكوشيما (Fukushima)، موقع المنشأة النوويَّة التي لا تزالُ تسيطرُ على الأخبار في اليابان. عندما اقترَبْنا من المنطقة، سجَّل عدَّاد "غيجَر" (Geiger) المتنقِّل كمِّيَّاتٍ من وحدات الإشعاع التي كنَّا نتعرَّض لها في كلِّ ساعة. خلافًا لمشاهد الدَّمار في ذلك الإقليم، كانت البيوتُ والمتاجرُ والمعابدُ وأبنيةُ المكاتب لا تزالُ سليمةً لم تتأثَّر بالموجة، لكنَّها خاليةٌ من السكَّان. وبسبب الإشعاع وخطر انصهار المُفاعل، أعلنَ المسؤولون المكانَ "منطقةً محظورة" حيث تهيمُ في الشوارع الحيواناتُ الشاردة والحيوانات الأليفة المتروكة. صارَ المقيمون السابقون في فوكوشيما منبوذين داخل اليابان. ترفضُ بعضُ المستشفيات معالجتَهم وتتردَّدُ مناطقُ أُخرى بقبول موظَّفين من تلك المنطقة. صارَ متعهِّدُ دَفنُ الموتى بطلًا محلِّيًّا لأنَّه يوافقُ على إعدادِ أجساد الذين لقوا حتفَهم، وهو طقسٌ مهمٌّ في اليابان، لكنَّها وظيفةٌ لم يجرؤ أحَدٌ على قبولها خَوفًا من التلوُّث. يقولُ الناجون في فوكوشيما لأولادهم خَوفًا من التشوُّهات الوراثيَّة: "لا تُنجِبوا الأطفال!".

معظمُ الناجين، الذين كانوا في معظمهم أشخاصًا متحفِّظين رَزينين يُصرِّحون بأقلَّ ممَّا حدثَ في الواقع، رووا لي قصصَهم بنبرةٍ مملَّةٍ خاليةٍ من المشاعر. لكنَّ إحدى النساء كانت مختلفةً عنهم. قادَتْ سيَّارتَها ليلًا لما يزيدُ على الساعة في طُرقٍ مؤقَّتةٍ إلى اجتماع في كنيسة يُقامُ الآن في مبنى إحدى المطابع نظرًا إلى دمار مكانِ العبادة فيها. بأسلوبِ تجميلٍ تنفردُ به اليابان، كانت تضعُ على وجهها طبقةً كثيفةً من مستَحضراتِ التجميل البيضاء، فبدَتْ كإحدى الدُّمى الصينيَّة. كانت عيناها الثاقِبَتان والداكِنَتان نادرًا ما تطرفان. قالت: "بقيتُ مَدفونةً تحت كومةٍ من القمامة والأنقاض مدَّة يومَين. ثمَّ رأيتُ يدًا تمتدُّ نحوي على هذا النحو". ثمَّ أمسكَتْ يدي فجأةً بطريقةٍ غير يابانيَّة البتَّة. "أمسكتُ اليدَ التي سحبَتني إلى الأعلى. لقد فقدْتُ كلَّ شيء- عائلتي، أصدقائي، بلدتي. لا أحَدَ يرغبُ في العودة. لم يعُدْ للبَلدة وُجود. أرجو ألَّا تنسانا! لقد نسَوني لعدَّة أيَّام، والآن ينسون بلدتي. أريدُ أن أعرفَ السبب".

لماذا؟

آه، كم نتوقُ إلى معرفة جوابِ ذلك السؤال الأبديّ! نستطيعُ إلقاءَ اللَّوم على الشرِّ البشريِّ الذي أدَّى إلى معاناةٍ لا حصرَ لها في ما يتعلَّقُ بسرايبيفو وحروبٍ أخرى. ونستطيعُ أن نُلقيَ باللَّومَ على الأمراض النفسيَّة أو المعتقدات المتطرِّفة أو قوانين الأسلحة السيِّئة أو إهمالِ الأهل تربيةَ الأطفال بالنِّسبة إلى ما حدث في نيوتاون (Newtown) وبوسطن ومآسٍ مشابهة. غير أنَّ الأمرَ بالنسبة إلى التسونامي وغيره من الكوارث والقوى القاهرة؛ وبغياب أيِّ شخصٍ آخرَ نُلقي باللَّوم عليه، فإنَّها تُصنَّفُ بمصطلحٍ في اللغة الإنكليزيَّة هو "Acts of God"، أي "من أعمال الله".

يُقيمُ اللّاأدريُّون يَومًا يحتفلون فيه بعد أحداثٍ كارثيَّةٍ كهذه. تخلَّى ڤولتير (Voltaire) وزملاؤه من مفكِّري حركة التَّنوير عن إيمانهم بما وصفوه "أفضل من جميع العوالم الممكنة" بعد أن دمَّرَ زلزالٌ في عام ١٧٥٥م مدينة لشبونة (Lisbon) البرتغاليَّة في عيد جميع القدِّيسين (All Saints' Day). وعندما قتل تسونامي آخرُ ٢٨٠,٠٠٠ في آسيا في اليوم التالي لعيد الميلاد عام ٢٠٠٤م، نشرتْ مجلَّة سلايت (Slate) مقالةً بعنوان: "ابعثوا برسالةٍ إلى الله: لقد تجاوزَ حدودَ المعقول هذه المرَّة" (Send a Message to God: He has gone too far this time). كتبَتْ هيذر ماكدونالد (Heather MacDonald)[1] في هذه الرسالة: "لقد حان الوقت لمقاطعة الله":

> "يعلمُ الله أنَّ في وُسعه أن يجلسَ بسلبيَّةٍ بينما تُبادُ الحياةُ البشريَّة بطريقةٍ غاشمة، وفي اليوم التالي ستمتلئ الكنائس ومعابد اليهود والمساجد بالمؤمنين، شاكرين الله لأنَّه سمح للنَّاجين بالبقاء على قَيدِ الحياة. سيطلبُ المؤمنون منه أن يشفيَ المصابين في حين يتغاضَون عن فشله في منع الكارثة في المقام الأوَّل...
>
> أين هو حافزُ الله الذي يدفعُه ليتصرَّف على هذا النحو؟ يُنسَب إليه الفضل بالأشياء الصالحة، ولا يتلقَّى اللَّوم على الأمور السيِّئة".

كانت لدى ديڤيد بنتلي هارت (David Bentley Hart)[2]، وهو لاهوتيٌّ أُرثوذكسيٌّ شرقيٌّ، الشجاعةُ للردِّ على المشكِّكين في كتابٍ صغير عنوانه: "أبوابُ البحر: أين الله في التسونامي؟" (The Doors of the Sea: Where Was God in the

Tsunami?). قد تثيرُ المآسي الجماعيَّة غضبًا لدى غير المؤمنين، كما قال، لكنَّها في الواقع لا تعلِّمنا أيَّ شيءٍ جديدٍ عن العالم الذي نعيشُ فيه. إنَّ حجمَ المعاناة لا يغيِّر من القضايا الأساسيَّة. المعاناةُ والشرُّ والموتُ يفسدون كَوكَبَنا، والنكسات بكلِّ بساطةٍ تركِّزُ على البؤس الذي سبقَ أن عَرَفْناه جيِّدًا.

ليس ثمَّة جَدوى من قياسِ حَجْم المعاناة كما تعلَّمتُ طَوالَ حياتي. وحقيقةُ أنَّ تسونامي ٢٠٠٤م قتلَ عددًا أكبرَ من الناس من تسونامي ٢٠١١م؛ أو أنَّ طلَّابًا قُتلوا في جامعة ڤيرجينيا للتكنولوجيا أكثرُ من الذين قُتِلوا في مدرسة ساندي هوك الابتدائيَّة- لا تجعلُ حادثةً ما أكثرَ مأساويَّةً من حادثةٍ أُخرى. وبالمثل، لا يفيدُ الشخصُ الذي يعاني صداعًا قويًّا في الرأس أو يعاني متلازمةَ التَّعب المزمن أن تشيرَ إليه بشأن شخصٍ في حالةٍ أسوأ، مثلَ شَخصٍ مصابٍ بالإيدز أو بڤيروس إيبولا (Ebola). جميعُ أنواع المعاناة هي معاناة. كما قال سي. أس. لِويس (C. S. Lewis)[٢]، لا يوجَدُ شيءٌ اسمه "مجموعُ معاناة العالم". إنَّها فكرةٌ تجريديَّةٌ أوجدَها الفلاسفة. هناك بكلِّ بساطةٍ أفرادٌ يتألَّمون، وهناك مَن يتساءلُ لماذا يسمَحُ الله بذلك.

عندما أزورُ مواقعَ المأساة، كنتُ أُفاجأ في كلِّ مرَّةٍ بما تفعله وسائل الإعلام لإدراكنا وقدرتنا على الفهم. ذهبتُ إلى جامعة ڤيرجينيا للتكنولوجيا وأنا مدركٌ للثَّلاثة والثلاثين طالبًا الذين قُتلوا جماعيًّا في "أسوأ حادثة إطلاقِ نارٍ جماعيٍّ في تاريخ الولايات المتَّحدة"، كما ظلَّ التلفاز يردِّد باستمرار. لكنْ عندما سرتُ بين النُّصُب التذكاريَّة الفرديَّة، قابلت رايان وإميلي وخوان ووليد وجوليا- ثلاثةٌ وثلاثين شخصًا وليس مجموعة. أعادَتْ تذكاراتٌ شخصيَّةٌ إلى الأذهان حياتَهم المتميِّزة: البايسبول، دميةٌ على شكلِ دبٍّ، نسخة من قصَّة "غاتسبي العظيم" (The Great Gatsby)، كوبٌ من مقهى ستاربكس (Starbucks). كان

ردُّ فعلي مشابهًا في نيوتاون بولاية كونكتيكت عندما قابلتُ عائلاتٍ مفجوعةً، وسمعتُ عن حيواناتِ الأطفال الأليفة وشجاراتهم مع أشقّائهم.

صدمَتْني في اليابان صرخةُ امرأةٍ تحملُ وجهَ دميةٍ من الخزف، بقوّةٍ أكثر تعبيرًا من أيّة إحصائيّاتٍ قرأتُها عن التسونامي. إنّنا نختبر المعاناة وحدَنا- إنّها "تعزلنا"- وبالنّسبة إلى الأشخاص المعنيّين، المقياس لا يهمُّ كثيرًا. حتّى كارثةٌ ضخمةٌ مثل التسونامي يمكنُ تقريبُها لتَصيرَ شخصيَّةً: طفلٌ جرفَتْه المياهُ بعيدًا من ملعب روضة الأطفال، مشروعٌ عائليٌّ دُمِّر في لحظة، مراهقٌ أُصيبَ بالرُّعب من الهزّات الارتداديّة التي تضربُ كلَّ أسبوع، الجميع يشعرُ بالخوف من تهديدِ الإشعاع غير المرئيّ.

يتابع اللّاهوتّي هارت كلامَه راصدًا مفارقةً مخبّأةً في حجج المتشكّكين: "ما كان هذا ليحدُثَ قطُّ لضَمائرَ لم يشكّلها بصورةٍ عميقةٍ العالم الأخلاقيُّ للثّقافة المسيحيّة". إنَّ الأصواتَ الأشدَّ صخبًا تنقضُّ على مأساةٍ جماعيّة كما لو أنّها وضعَتْ مسمارًا أخيرًا في نعش الإيمان: كيف يمكنُ لإلهٍ صالحٍ أن يسمحَ بكارثةٍ كهذه؟ على الرُّغم من كَون السؤال سرًّا عميقًا ولا سبيل لتجنُّبِه، فإنّه لا يمكنُ طرحُه إلّا في سِياقِ الإيمان الدينيّ. يجب أن أسمعَ النقّادَ بعدُ وهُم يقدّمون إجابةً متّسقةً مع معتقداتهم الخاصّة: لماذا شعرتُ بالصّدمة والانزعاج؟ ما الذي ينبغي لنا أيضًا أن نتوقّعُه من كَونٍ غير شخصيٍّ يتّصِفُ باللّامبالاة العشوائيّة؟

في الواقع، يقدّم الكتاب المقدَّسُ اعتراضاتٍ أقوى من اعتراضات المشكّكين. عندما أتحدَّثُ في الجامعات، أتحدّى جمهوري أحيانًا أن يَجِدوا حُجّةً ضدَّ الله- سواء لدى مُلحدين كلاسيكيّين مثل ڤولتير وبرتراند رَسِل (Bertrand Russell) وديڤيد هيوم (David Hume)، أم لدى الملحدين

المعاصرين مثل الراحل كريستوفر هيتشنز (Christopher Hitchens) وسام هاريس (Sam Harris) وريتشارد دوكنز (Richard Dawkins)– لم تتحدَّثْ بشأنها أسفارُ الكتاب المقدَّس بِوُضوح. وأنا أقولُ للطلَّاب الذين يُغريهم فعلُ ذلك: "أنتم أحرارٌ في رَفْضِ الله والطريقةِ التي يُدار بها العالم. لكنِّي أحترمُ الإلهَ الذي يمنحُنا ليس فقط حرِّيَّةَ رَفضِه، حتَّى إلى درجةِ صَلْبِ ابنه، بل يُدرجُ أيضًا كلماتِ الرَّفض في الأسفار المقدَّسة".

فلأُقدِّمِ الآن عيِّناتٍ موجَزة:

- جِدعون (يتحدَّث إلى ملاك): "يا سيِّدي، إذا كان الربُّ معنا، فلماذا أصابَتْنا كلُّ هذه؟".[٤]
- أيُّوب: "ها إنِّي أصرخُ ظُلمًا فلا أُستجابُ. أدعو وليس حكم".[٥]
- المزامير: "استيقظ، لماذا تتغاضى يا ربّ؟ انتبه".[٦]
- الجامعة: "باطلُ الأباطيل الكلُّ باطل".[٧]
- إشَعْياء: "حقًّا أنتَ إلهٌ محتَجِب".[٨]
- إرميا: "لماذا تكونُ كإنسانٍ تحيَّر، كجبَّارٍ لا يستطيعُ أن يخلِّص؟".[٩]
- يسوع (على الصليب): "إلهي إلهي لماذا تركتني؟".[١٠]

تُثني الكاتبةُ آن لاموت (Anne Lamott)[١١] على أسلوب الاحتجاج هذا. "اعتقادي هو أنَّك عندما تقولُ الحقيقة تكونُ قريبًا من الله. إذا قلتَ لله: "أنا مُنهَكٌ ومكتئبٌ بشكلٍ لا يمكنُ أن تعبِّر عنه الكلمات، وأنا لا أحبُّكَ بتاتًا الآن، وأبتعدُ عن معظم الأشخاص الذي يؤمنون بك"، فهذه تكونُ أصدَقُ العبارات التي نطقْتَ بها يومًا. وإذا أخبرتَني بأنَّك قُلتَ لله: "كلُّ ذلك ميؤوس منه، وليس لديَّ أدنى دليلٍ على أنَّك مَوجود، لكنِّي أحتاجُ إلى مساعدة"،

فهذا يجلبُ الدُّموعَ إلى عينيَّ- دموعَ الفَخْر بك، للشَّجاعة التي احتجتَ إليها لتكونَ صادقًا- صادقًا حقًّا. إنَّ هذا يجعَلُني أرغبُ في الجلوس بجانبك إلى مائدة العشاء".

كيف يُجيب الكتاب المقدَّس عن هذه المراثي؟ بالصمت عادةً. أيُّوب، ذلك الإنسانُ التَّعِسُ الذي كان أقلَّ مَن يستحقُّ المعاناة، لكنَّه كان أكثرَ مَن تحمَّلها، حصلَ أخيرًا على مطلبه في أن يكونَ في حضرة الله الذي استَجابَ إلى طَلَبِه بأطوَلِ خِطابٍ مدوَّن لله. على أنَّ الغريبَ في الأمر أنَّ الله رُغمَ أنَّه أخذَ أيُّوبَ في جَولةٍ في العالم الطبيعيِّ في شِعرٍ رائع، فإنَّه لم يتطرَّقْ البتَّة إلى السؤال "لماذا؟". وفي كلمات فريدريك بوشنر (Frederick Buechner)[١٢]: "الله لا يفسِّر. إنَّه يفجِّر. لقد سألَ أيُّوب مَن كان يعتقد أنَّه هو على أيَّة حال. قال إنَّ محاولةَ تفسير هذا النَّوع من الأمور التي يريد أيُّوب تفسيرًا لها، سيكون مثل محاوَلةِ شَرْح نظريَّة أينشتاين (Einstein) لحيوان البطلينوس... إنَّ الله لا يكشف عن تصميمه الكبير. إنَّه يُعلنُ نفسَه". ثمَّ في مفارَقةٍ مُفرِحة، يُعلنُ الله أنَّه فقط من خلال تأييد أيُّوب، سيَستمعُ إلى الأصدقاء الذين ضايَقوا أيُّوب بلاهوتِ الإدانة الخاصِّ بهم. لقد بدأوا بدايةً حسنةً بجلوسهم مع أيُّوب على الأرض لمدَّة سبعة أيَّام لزموا فيها الصمت، وبدأَتِ المشكلاتُ عندما فتَحوا أفواهَهم.

لطالما تساءلتُ عن سبب عدم إعطاء الكتاب المقدَّس تفسيرًا منهجيًّا لمشكلة الألم والمعاناة. كانت لدى الأنبياء وجهةُ نَظَرٍ بالنِّسبة إلى أسبابِ معاناةِ الشعب العبرانيِّ ونتائجها، لكنَّهم كانوا يُطلِقون تحذيراتهم دائمًا مسبَّقًا بوقتٍ كافٍ مع علاجٍ مَوعودٍ إذا ما غيَّرت الأمَّة طرقَها. نحَّى يسوعُ جانبًا الأسئلةَ التي تهدفُ إلى معرفة السبب، إلَّا عندما كان يريدُ أن يدحضَ نظريَّاتِ الفَرِّيسيِّين والتلاميذ التي لا تقبلُ الجدلَ، والقائلة إنَّ المعاناةَ عقابٌ. ويبدو أنَّ معظم

كُتّابِ الكتاب المقدَّس لم يجلسوا ويحُكُّوا رؤوسَهم مفكِّرين في السؤال: "لماذا تحدُثُ أمورٌ سيِّئةٌ للأشخاص الصالحين؟" لقد نظروا إلى العالم كأنَّه أرضٌ للعدوّ، كَوكبٌ فاسدٌ يحكمُه أبو الأكاذيب، ساحر المصيبة. وماذا ينبغي لنا أن نتوقَّع من كذب الشيطان؟ عندما قدَّم رئيس هذا العالم حلًّا مغريًا ومختَصَرًا لمشكلات الأرض، لم يسخَرْ يسوع بافتراضه امتلاك السلطة، لكنَّه اختارَ نقيضَ ما قدَّمَه في صالح حلٍّ أبطأ وأكثر كلفةً، لكنَّه حلٌّ دائم.

يتوقَّع البوذيُّون اليابانيُّون الذين ينظرون إلى إيمانهم نظرةً جِدِّيَّة- وأقلِّيَّةٌ منهم تفعلُ هذا- وقتًا تَفقِدُ فيه نفوسُ الذين تُوُفُّوا هُوِيَّتها وتندمجُ مع وَحدة الكَون. ويقبلُ العَلمانيُّون من غير المؤمنين فكرةَ انقراض الكَوكب بعد ملايين السنين عندما ينطفئ لهيبُ الشمس مثل عودِ ثقابٍ خامد. في المقابل، يضعُ المسيحيُّون رجاءَهم في الوقت الذي سيُدمَّر فيه الموت، "العدوُّ الأخير"[١٣]، عندما يفصلُ الله الشرَّ عن الخير، والموتَ عن الحياة، ويُحيي أجسادَ الموتى ونفوسَهم على حدٍّ سواء في قرارٍ أخير: "هأنذا صانعٌ أمرًا جديدًا"[١٤].

حضرتُ جنازةَ صبيٍّ في شيكاغو حيثُ صدمَ راعي الكنيسة المحزونين عندما نظرَ إلى التابوت وقطعَ خطابَه التأبينيَّ بهتافٍ مفاجئ: "اللعنة عليك أيُّها الموت!". لكنَّه استدرَكَ نفسَه وقال بسرعة: "ليس الله - أنا ألعَنُ الموت. والله أيضًا وعدَ أن يلعنَه".

رجاؤنا الوحيد

يقولُ اللَّاهوتيُّون إنَّنا نعيشُ على كَوكبٍ ساقط. إنَّ على مَن يَشُكُّ في هذا القَولِ أن يزورَ اليابان. قرأتُ تقاريرَ من علماء الزَّلازل الذين توقَّعوا أن يضربَ

''الزلزال الكبير'' ليس فقط قُبالة ساحل توهوكو، بل أبعدَ من ذلك جنوبًا قُربَ طوكيو، ممَّا كان سيُسبِّب دمارًا أكبرَ بكثير. غير أنَّ ما حدثَ هو أنَّ الزلزالَ ضربَ بقوّةٍ كبيرةٍ حتَّى إنَّه جعلَ الأرضَ تتزحزحُ عن محورها، ممَّا خفَّضَ ضوء النَّهار بضعَ أجزاءٍ من الثانية، وأخلَّ بعَمَلِ محطَّات الرَّصد المرتبطةِ بنظام الأقمار الصناعيَّة في جميع أنحاء العالم، وأطلَقَ طاقةً تعادل ٦٠٠ مليون مرَّة طاقة القنبلتَين الذريَّتين اللتَين أُلقِيَتا على اليابان عام ١٩٤٥م.

لكنَّ القوى التي شوَّهتْ قشرةَ الأرض، والتي أثبتَتْ قوَّتَها التدميريَّة الكبرى في عام ٢٠١١م، هي ذاتها التي شكَّلتْ جزرَ اليابان أصلًا. إنَّ الأعاصير والزَّوابع التي تُحدِثُ خَرابًا هي ضروريَّةٌ للأنظمةِ المناخيَّة التي تنشرُ الرطوبةَ عبر الكرة الأرضيَّة. عندما ننظرُ إلى هذا العالم من أيَّة عدسة، طبيعيَّةٍ أم لاهوتيَّة، فإنَّنا نراه ''في مرحلة'' خللٍ، وعدم اكتمال، ونقصان.

منذ أيَّام آدم، أوكِلَتْ إلينا نحن البشرَ مَهامُّ الوكالة: تنمية الحدائق بين الأشواك والنباتات الشوكيَّة، رعاية الحيوانات، بناء الحضارات. وبوصفنا كائناتٍ حيَّةً خلَّاقةً أدنى من الخالق ومخلوقين على صورةِ الله، نحن مكلَّفون بخَلْقِ النِّظام من الفَوضى. خَطَونا خطواتٍ عملاقة: حتَّى قرنَين مضيا، كان نصف الأطفال يموتون قبل سنِّ الخامسة، وكان معدَّلُ حياة البالغين خمسةً وثلاثين عامًا. روَّضْنا الأنهارَ وجعلْنا السماءَ طريقَنا السريع، وابتكَرْنا وسائلَ لنَبقى دافئين في الشتاء ومنتعشين في الصيف، ووحَّدنا العالمَ بشبكةٍ إلكترونيَّة.

نحن نعترف بأنَّه كانَ لهذا التقدُّم ثمنُه: تضاؤلُ الموارد، وزيادةُ عدد السكَّان، وارتفاع مستويات التلوُّث وتأثيره في المُناخ، وعدم الإنصاف الذي يسمَحُ للبَعض بأنْ يعيشَ في رخاءٍ على حساب الآخرين. يسيرُ التاريخ بثَبات،

وخلال كلِّ هذا الوقت لم يَقُمِ الله بأيِّ عمل. هكذا يتَّهمه النقَّاد. لم يتدخَّلِ الله عندما قسَّمتِ القوى الأوروبيَّة القارَّات، واستوردَ العالم الجديدُ ملايينَ العبيد، أو عندما حاوَلَ النازيُّون إبادةَ "الشعب المختار" في أسوأ محاوَلاتِ الإبادة الجماعيَّة الكثيرة. مهما كان السبب، اختارَ الله أن يسمحَ للتَّاريخ بأن يأخُذَ مجراه دونَ تَدخُّل.

لماذا؟ ليس لدَينا جوابٌ محدَّدٌ أكثرُ من الجواب الذي تلقَّاه أيُّوب. ليس لدَينا سوى الرجاء العنيد- المختلف عن التفاؤل الساذج- بأنَّ قِصَّة يسوع التي تشمل الموتَ والقيامة معًا، تُعطي الدليلَ الساطع على ما سيَفعلُه الله للكَوكب كلِّه. يَعِدُ التفاؤلُ أنَّ الأمورَ ستتحسَّن بالتَّدريج، ويَعِدُ الرجاءُ المسيحيُّ أنَّ الخليقةَ ستتحوَّل. حتَّى ذلك الوقت، يُفضِّل الله بكلِّ وُضوح ألَّا يتدخَّل في كلِّ حادثةِ شرٍّ أو كارثةٍ طبيعيَّة مهما كانت مؤلمةً وفادحة. بدلًا من هذا، أعطانا الله مأموريَّةً بوصفنا وكلاءَ للتدخُّل في وسط عالمٍ عدائيٍّ ومحطَّم.

قال يسوعُ للتَّلاميذ الحائرين في آخِرِ عَمَلِ تَفويضٍ لهم، وأعطانا بذلك مثالًا نقتدي به: "خيرٌ لكم أن أنطلق"[١٥]، لا أتكلَّم أيضًا معكم كثيرًا لأنَّ رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء"[١٦]. ولكنْ ليَفهمَ العالم أنِّي أحبُّ الآبَ، وكما أوْصاني الآبُ هكذا أفعل". ثمَّ خرجَ يسوعُ ليواجهَ ليلةً طويلةً من المعاناة التي صلَّى بحرارةٍ لئلَّا يواجِهَها، ومع ذلك رفضَ أن يستخدمَ سلطتَه لمنعها.

مضى على الخليقة وقتٌ وهي تئنُّ وتتمخَّض "كما هي الحال في آلام الولادة"[١٧]، كما قال بولس الرسول في رسالته إلى أهل رومية، الذي لم تكُنْ لديه أيَّةُ أوهامٍ حولَ حالةِ كَوكبنا. إنَّ أملَنا الوحيدَ هو تدخُّلٌ جذريٌّ، أي أنَّ "الخليقة نفسها أيضًا سَتُعتَق"[١٨] يومًا ما في شكلٍ من أشكال الانبعاث

الكَونيّ. حتّى ذلك الوقت، لن يرضيَنا أيُّ جَوابٍ على مشكلة المعاناة، حتّى لو كانَتْ لدَينا القدرةُ على فَهْم هذا الجواب. مثلُنا مثلُ أيُّوب، لا نستطيع تركيزَ انتباهنا إلَّا على الصورة الصغيرة، ونتشبَّثُ بالإيمان رُغمَ كلِّ الأدلَّة المضادَّة، ونضعُ ثقتَنا في الله لأجل الصورة الكبرى. لقد استنتجْتُ أنَّ الإيمانَ يعني التَّصديقَ مسبَّقًا بما سيكون له معنًى فقط عند النَّظرِ إلى ما حدَثَ في الماضي.

تحوُّلٌ في التركيز

أيمكنُ أن تكونَ هناك ميِّزة خَفِيَّةٌ لكَونِ الكتاب المقدَّس يتجنَّبُ السؤال "لماذا؟"؟ إنَّ معرفةَ الجواب تحوِّلُ الانتباه من الشخص الذي يتألَّم إلى الأوضاع التي تسبَّبتْ في ذلك الألم، وخلال هذه العمليَّة، لن يُفعَل سوى القليل لمساعدة الشخص المحتاج. مثلًا، سألَ يسوعَ تلاميذُه عن رجلٍ وُلِد أعمى: "مَن أخطأ، هذا أم أبواه؟"[١٩] إنَّ اختيارَ أحَدِ الخيارَين كان بالكاد سيولِّد مشاعرِ التَّعاطُف مع الرجل الأعمى- ربَّما كان التلاميذُ سيُعبِّرون عن استيائهم ويستمتعون بتفوُّقهم الأخلاقيِّ ثمَّ يبتعدون وهم يشعرون بأنَّ ذلك الشخصَ المسكين نالَ ما يستحقُّه. بدلًا من ذلك، ناقَضَ يسوعُ النظريَّات التي تقولُ إنَّ المعاناةَ عقابٌ- تمامًا كما كان الله قد رفضها بنظرةِ تأنيبٍ مع أصدقاء أيُّوب الأتقياء- وركَّزَ على فقدان الرجل بَصرَه.

غالبًا ما نركِّز بعد كارثةٍ رئيسيَّة على السبب، كما لو كان ذلك بدافع من غريزتنا. هل كانت الحلقات المطَّاطيَّة المسمَّاة "O'rings" هي التي جعلَتْ مكُّوكَ الفضاء تشالينجر (Challenger) ينفجر؟ هل كان في وُسع مكتب التحقيقات الفدراليَّة (FBI) أن يمنعَ هجمات ١١ أيلول/سپتمبر أو تفجيرات

ماراثون بوسطن؟ هل كانت جدرانُ البحر الأكثر ارتفاعًا لتُساعدَ توهوكو؟ ما الحالة العقليَّة التي أثارَتْ هجومَ آدم لانزا (Adam Lanza) على ساندي هوك (Sandy Hook)؟ رُغمَ أنَّ لهذه المقارَبة أهمِّيَّةً كبرى في مَنْع تَكرار هذه الحوادث في المستقبل، فإنَّها لا تفيدُ الضحايا المباشرين إلَّا قليلًا. إنّي أفكِّرُ في اليابانيِّين الذين قابلتُهم ممَّن اضطُرُّوا إلى إخلاء منازلهم الواقعة بالقرب من محطَّة فوكوشيما النُّوَويَّة، والذين يعيشون الآن في بيوتٍ مؤقَّتة، يُعامَلون مثل المنبوذين، وينتابهم الخوف من مشكلاتٍ صحِّيَّةٍ وشيكة. أجل، يجب أن يحقِّقَ العلماءُ والمهندسون بدقَّةٍ في خَلَلِ التَّصميم الذي أدَّى إلى انهيار المفاعل، لكنْ في غضون ذلك، ماذا بشأن الذين يُعانون؟

في كلِّ فِقرةٍ تقريبًا تتحدَّثُ بشأن المعاناة في العهد الجديد، ينحرفُ التركيز من السبب إلى ردِّ الفعل. رُغمَ أنَّنا لا نستطيع استيعابَ خُطَّة الكَون الرئيسيَّة التي تسمحُ بِوُجود هذا القَدْرِ الهائل من الشرِّ والألم (سؤال "لماذا؟")، فإنَّنا نستطيعُ مع ذلك الاستجابةَ بطريقتَين مهمَّتَين. أوَّلًا، يمكنُنا أن نجدَ معنًى في خِضَمِّ المعاناة. ثانيًا، نستطيعُ أن نقدِّمَ مساعدةً واقعيَّةً وعمليَّةً إلى مَن هم في حاجةٍ إليها.

في كتابه "**مشكلة الألم**" *(The Problem of Pain)*، يكتب سي. أس. لِويس (C. S. Lewis)[٢٠]: "يهمسُ الله إلينا في متعتِنا، ويتحدَّث في ضميرنا، لكنَّه يصرخُ في آلامنا. إنَّه يستخدمُ مكبِّرًا للصَّوت لإيقاظ عالمٍ أصَمّ". أتردَّد في مخالفة لِويس رأيَه، لكنَّ هذه الصورةَ تجعلُني أشعرُ بالاستياء. إنَّها تذكِّرُني بمدرِّب كرة قدم على خطِّ التَّماس وهو يصرخُ في لاعبيه عَبر مكبِّرٍ للصَّوت، وقد يستنتجُ بعضُ القرَّاء من هذا التشبيه المجازيِّ أنَّ الله يوزِّعُ المعاناةَ ليَلفتَ انتباهَنا. لا أعتقدُ أنَّ لِويس قصدَ مثل هذا الاستنتاج، لذا أُبدِّلُ الصورةَ من

مكبِّرِ الصَّوت إلى سماعةِ الأذن الإلكترونيَّة. عندما يُصيبُنا الألم، فإنَّه يُتيحُ لنا- نحن الذين نعاني- الفرصةَ لنزيدَ قوّةَ الصوت ونَنتَبِهَ إلى الرسائل المصيريَّة التي كنَّا، بخلافِ ذلك، سنتجاهَلُها.

لقد اختبرتُ أنا بكلِّ تأكيدٍ قيمةَ تكبيرِ صَوتِ الألم. إنَّ كَسْر رقبتي في حادثِ سَيرٍ عام ٢٠٠٧م جَعَلَني أُعيدُ النَّظرَ في زواجي وإيماني وكيف أُخطِّط لتَمضِيَة السنوات التي بَقِيَتْ لي. بينما كنتُ مستلقيًا مقيَّدًا باللَّوح الخشبيِّ الذي يدعمُ الظهرَ منتظرًا أن أسمعَ كلمةً عمَّا إذا كان شريانٌ رئيسيٌّ قد ثُقب أو شابَه- على هذه الحال، يكون قد بقيَ لديَّ بضع دقائق أعيشها، كما قال لي الطبيب- لم أستطع أن أفكِّرَ إلَّا في ثلاثة أسئلةٍ تستحقُّ التأمُّل: مَن أُحِبُّ؟ ماذا فعلتُ في حياتي؟ هل أنا مستعدٌّ لأيِّ شيءٍ سيأتي لاحقًا؟ كان في وُسعي دون شكٍّ التَّوفيق ما بين حياتي وهذه الأسئلة طَوال الوقت، لكنَّ الأمرَ تطلَّبَ حَدَثًا أليمًا ليَجعلَني أُعدِّلُ حياتي لتتناسبَ مع ما هو أهمُّ من غيره.

كتبَ الشاعر الألمانيُّ راينر ماريا ريلكه (Rainer Maria Rilke)[٢١]: "لو كان في وُسعنا أن ننظرَ إلى ما هو أبعَدُ من حدود معرفتنا... لربَّما استَطَعْنا عندئذٍ أن نحتملَ أحزانَنا بثقةٍ أعظمَ من أفراحنا؛ لأنَّها تكونُ اللحظاتُ التي يدخلُ فيها شيءٌ جديدٌ فينا- شيءٌ غير مألوفٍ... كلُّ شيءٍ في داخلنا يتراجعُ إلى الوراء، يتبعُه صمتٌ وشيءٌ جديد... يقفُ في الوسط وهو صامت".

بصورةٍ قريبةٍ لما يَصِفُه ريلكه، طرأ تحوُّلٌ ما بين الشَّباب في اليابان بعدَ التسونامي. على مدى سنوات، ضربَ كفًّا على كفٍّ نَدَمًا وحسرةً بسبب تأثير "العقود الضائعة" من جرَّاء الركود الاقتصاديِّ في شباب اليابان المُدلَّل. لدى علماء الاجتماع اليابانيِّين فهرسٌ من الكلمات لوَصْفِ جيلٍ غير متوافقٍ مع

محيطه: أوّلها بالإنكليزيّة "Freeters" للّذين يتعمّدون اختيارَ مِهنٍ لا تحدٌّ فيها ولا تقدُّم؛ وكلمة "Hikikomori" للّذين يعزلون أنفُسَهم، بعضُهم لم يغامروا قَطُّ بالخروج من غرف نَومهم؛ وكلمة "Parasites"، أو الطفيليُّون، للّذين يستَجْدون والدِيهم للحُصول على مَسكنٍ ومأكلٍ بحيثُ يتمكّنون من شراء أحدث الأجهزة الإلكترونيّة والأزياء الغربيّة. لدهشة الجميع، استَفاقَ هؤلاء الشباب المرتبكون كأنّهم كانوا نيامًا بعدَ الزلزال والتسونامي. تطوَّعوا للعمل في الملاجئ الآمنة وفي مواقع توزيع الطعام، وتبرَّعوا بالمال لأعمال الإغاثة، واستخدموا مهاراتهم في التواصل الاجتماعيّ لِلَمّ شَمْل المهجَّرين مع أُسرهم، وحفَّزوا الحكومة لتَكونَ أكثرَ تَعاوُنًا بشأن انهيار المفاعل. وكانوا في مقدّمةِ مَنِ اكترَثَ بحملةِ الحكومة لتَوفير الكهرباء للتّعويض عن خسارة اليابان لمنشآت الطاقة النُّوويّة.

كان ڤيكتور فرانكل (Viktor Frankl)[٢٢] أحَدَ الناجين من أربعة من معسكراتِ الاعتقال النازيّة المختَلِفة، وقد أسَّسَ مدرسةً للعلاج النفسيّ. قرَّر أنَّ البحثَ لإيجاد معنى في الحياة هو القوّة الدافعةُ الأقوى لدينا. ووَفقًا لفرانكل، فإنَّ ردَّ فعلنا على المعاناة التي لا يمكنُ تجنبُّها هو أحَدُ الطرق الرئيسيّة لإيجاد ذلك المعنى. كتبَ يقول: "اليأسُ هو المعاناةُ دون معنى، ويمكن أن يُنزَع كلُّ شيء من الإنسان ما عدا شيئًا واحدًا: آخرَ حرّيّات الإنسان- حرّيّة اختيار مَوقفِه في أيّة مجموعةٍ من الأحوال".

إنَّ سكّان اليابان يقدّمون أنموذجًا لكيفيّة التّجاوُب مع كارثةٍ رئيسيّة. احتفَتْ وسائلُ الإعلام، وهي محقّةٌ بذلك، بصبر الشعب اليابانيّ واحتماله. سَلَّم المقيمون طواعيةً مبالغَ تقدَّر بنحو ١٠٠ مليون دولار تقريبًا وأشياءَ ثمينةً وجدوها بين الأنقاض، على النقيض من عمليّاتِ السلب والنهب التي تحدُثُ في أماكنَ كثيرةٍ بعد وقوع كارثة. على مدى أسابيع بعد التسونامي، كان ألوف الأشخاص

ممَّن جرى إجلاؤهم ينامون في قاعات الألعاب الرياضيَّة وقاعاتٍ مكتظَّةٍ، ووقفوا في الدَّور ساعاتٍ للحصول على زجاجةِ ماءٍ وطبقِ أرزّ. عندما زرتُ المنطقة التي ضربَها الزلزال بعد عام، كان ربعُ مليون يابانيٍّ لا يزالون يُقيمون في مساكنَ مؤقَّتة، في وحداتٍ بقياس مترين وأربعة أمتارٍ مربَّعة كالتي يراها المرءُ في مواقع البناء. كان ردُّ فعلهم مغايرًا بصورةٍ مختلفةٍ تمامًا للتذمُّر والأعمال المخالِفة للقانون التي تَلَتْ إعصارَ كاترينا (Katrina) في نيو أورليانز (New Orleans).

للأسف، كانت لليابان خبرةٌ كبيرةٌ في التَّعافي من الكوارث: قتلَ زلزال كانتو (Kanto) عام ١٩٢٣م نحو ١٤٠,٠٠٠ شخص؛ وزلزال كوبي (Kobe) عام ١٩٩٥م نحو ٦٤٠٠ شخص، وتسبَّبَ في أضرارٍ بلغَتْ تكلفتُها ١٠٠ بليون دولار. الأمرُ اللَّافتُ للانتباه أكثر الكلّ هو أنَّ الأمَّة نهضَتْ من بين الرَّماد بعد الحرب العالميَّة الثانية التي خلَّفت وراءها ثلاثة ملايين قتيل والعديد من المدن المدمَّرة بالإضافة إلى اللعنة المستمرَّة لتَداعِياتِ القنبلة النَّوَويَّة.

ابحث عن مساعدين

تظهر قوَّةُ المجتمع الحقيقيَّة بطريقةِ مُعامَلتِه أعضاءَه الأضعفَ، ولدينا نحن الغربيِّين الكثيرَ لنتعلَّمَه من مثال اليابان. وكما تعلَّمَ الجيلُ غير المنسجم مع مجتمعه في اليابان، فإنَّه لعمليَّة الاستجابة للمحتاجين ذاتِها أن تُعطي معنًى جديدًا للحياة.

اعتادَتِ اختصاصيَّةُ عِلْم الإنسان (Anthropologist) مارغريت ميد (Margaret Mead)[٢٢] أن تسألَ مستَمِعيها في المحاضرات: "ما أقدَمُ علامةٍ تدلُّ على نشوء الحضارة بحسب رأيكم؟" كانت تحصلُ على إجاباتٍ بديهيَّة

مثل "إناءٍ فخّاريّ"، أو "أدواتٍ مصنوعةٍ من الحديد" أو "النبات الأوَّل الذي زرعَه البشر". ثمَّ إنَّها كانت تقول: "ها هو جوابي"، وترفعُ عظمةَ فخذ إنسان، وهي أكبرُ عظامِ الساق، ثمَّ تُشيرُ إلى منطقة غليظة حيث كان العظم قدِ التأمَ بعد الكسر.

وكما لاحظَتْ ميد: "لم يُعثَرْ قَطُّ على علاماتِ الشفاء ما بين بقايا أقدَم المجتمعات وأشرَسِها. إنَّنا نَجِدُ في هياكلهم العظميَّة قرائنَ تدلُّ على العنف: ضلعًا مثقوبةً بقَوس، جمجمةً مهشَّمة بهراوة. لكنَّ هذه العَظمة التي شُفيَت تُظهِر أنَّ شخصًا ما كان قد اعتَنى بالمصاب- اصطادَ نيابةً عنه وجلبَ الطعام إليه، وخدمَه بتَضحيةٍ شخصيَّة". وخلافًا لقانون الطبيعة القائل إنَّ: "البقاءَ للأصلح"، فإنَّنا نحن البشرَ نقيسُ الحضارةَ بكيفيَّة تجاوُبِنا مع الأضعَفِ والأكثر مُعاناةً.

قال فرِد روجرز (Fred Rogers)، الشخصيَّةُ التلفزيونيَّةُ في برامج الأطفال، إنَّه عندما كان صبيًّا صغيرًا؛ وكان يسمعُ عن حادثٍ ما أو كارثةٍ طبيعيَّة، كانت والدتُه تقول له: "ابحَثْ عن المساعدين يا فرِد. في كلِّ مرَّةٍ يحدثُ فيها شيءٌ مخيف، هناك دائمًا أشخاصٌ يُهرَعون للمساعدة". رأينا نحن في الولايات المتَّحدة أمثلةً واضحةً في رجال الإطفاء العشرة الذين هُرِعوا إلى مصنع الأسمدة الكيماويَّة الذي كان يحترقُ في ولاية تكساس، فقط ليَخسَروا حياتَهم في الانفجار الناتج عن ذلك. وبعد أن تفرَّقَ المشاهدون بعد تفجيرات ماراثون بوسطن، هُرِعَ أعضاء الطاقم الطبِّيّ نحو المصابين، معرِّضين حياتهم للأذى من جرَّاء الانفجار الثاني. أمَّا بعضُ العدَّائين الذين كانوا قد أكملوا لتوِّهم السباقَ، فقد تابَعوا جَريَهم إلى المستَشْفَياتِ القريبةِ للتبرُّع بالدَّم. في تلك الليلة، فتحَ آلافُ المقيمين في بوسطن منازلَهم للزائرين العاجزين الذين تقطَّعت بهم السُّبُل لتَناوُلِ العشاء والمبيت.

أظهرَتْ نيوتاون ردَّ فعلٍ مجتمعيًا لافتًا للانتباه على كارثةٍ تختلفُ كثيرًا عن تلك التي وقعَتْ في اليابان، إذ كانت الكارثةُ في هذه الحال على نِطاقٍ أصغرَ بكثيرٍ وتسبَّبَ فيها البشرُ مباشرةً.

في صباح ١٤ كانون الأوَّل/ديسمبر، نظرَ طبيبٌ نفسانيٌّ[٢٤] متقاعدٌ من نافذته، وقد كان يُقيمُ في الشارع المقابل لمدرسة ساندي هوك الابتدائيَّة، فرأى منظرًا غير اعتياديٍّ لأربع فتياتٍ وصبيَّين جالسين على عشبِ الحديقةِ الأماميَّة لبَيتِه، وذلك في منتصف يَومٍ دراسيّ. عندما اقتربَ منهم، قال له أحَدُ الصبيَّين الصغيرَين موضِحًا: "نحن لا نستطيعُ العودةَ إلى المدرسة. لقد ماتت معلِّمتنا السيِّدة سوتو (Soto). ليس لدينا معلِّمة". دعا الرجل المتقاعد الأولادَ إلى داخل منزله وأعطاهم الألعاب والعصير، بينما كان يحاولُ أن يعرفَ ما حدث، واتَّصلَ هاتفيًا بالسُّلطات. قال للمراسل الإخباريِّ الذي أثنى عليه: "لا علاقة للأمر بِكَوني طبيبًا نفسانيًا. لقد تجاوَبتُ كما يستجيبُ الجَدّ".

في غضون أيَّامٍ بعد إطلاق الرصاص، احتشدَ مئاتُ المتطوِّعين في بناء مدرسةٍ شاغرة في بلدةٍ مجاورة ليُعدُّوها لطلَّاب ساندي هوك. نقلوا الأثاث والطاولات من المدرسة القديمة، وزيَّنوا المدرسةَ الجديدةَ ليَجعلوها تبدو مألوفةً قَدْرَ المستطاع. وبوصفهم مجتمعًا مترابطًا بقوَّة، بدا سكَّانُ نيوتاون مصمِّمين على طَرْح صورتها من بلدةِ حزنٍ إلى بلدة منتصرةٍ على الرُّغم من الحزن. عندما تحدَّثتُ إلى بعض العائلات التي فقدَتْ أطفالًا في ساندي هوك، سمعْتُ فَيضًا من الاهتمام والتعاطُف من الأمَّة بأكملها. أحَدُ أصدقائي الذي انتقلَ من دنفر (Denver) إلى نيو تاون قبل ستَّة شهورٍ من حادثةِ إطلاقِ النَّار ليكونَ قريبًا من عائلةِ ابنه، فقدَ حفيدتَه التي كان يأملُ أن يشاركَها الحياة. قال: "كان ردُّ فعل المجتمع لا يُصدَّق. عيَّنَتْ دَوريَّةُ الولاية شرطيًا خيَّالًا لكلِّ عائلةٍ متضرِّرة لمدَّة

أسابيع بعدَ حادثةِ إطلاق النار، وذلك للمساعدة على إحلال الأمن وتقديم الحماية من وسائل الإعلام، فصارَ ذلك الشرطيُّ الخيَّال جزءًا من عائلتنا. لدينا ثلّاجاتٌ ملآنةٌ بالموادِّ الغذائيَّة التي تبرَّع بها آخرون، وهدايا عيد الميلاد التي لا يمكنُ حَصْرُها، وعرضٌ لتقديم المشورة لأطولِ مدَّة نحتاجُ إليها. في الوقت الحاضر، أنا وزوجتي منشغلان بالإجابة عن قسمٍ من الثلاثة آلافِ بطاقةٍ ورسالةٍ التي وصلَتْ إلى منزلنا معبِّرةً عن التعاطُفِ معنا لما فقَدْناه".

ليسَتْ كلُّ أساليب التعبير بهدفِ المساعدةِ الحسنةِ النيَّةِ تحقِّق هدفَها. قال لي أحَدُ المرشدين في نيو تاون: "هناك الكثير من الاستجابات من خارج المجتمع بدَتْ أكثرَ فائدةً للمانحين من المتلقِّين. أُرسلَتْ إلينا حمولةُ شاحناتٍ من دُمى الأطفال على شكل دببة وحيوانات محشوَّة، أكثر من ستِّين ألفًا في مجملها. هل تحتاجُ أيَّةُ مدرسةٍ إلى ستِّين ألفَ حيوانٍ محشوّ؟ أعطَينا معظمَهم إلى ملاجئ الأطفال الذين دون مأوى. وصلَ الناسُ من جميع أنحاء البلاد بألعابهم البهلوانيَّة والفطائر المجَّانيَّة وحيواناتهم الأليفة وأكشاك تقديم المشورة. انهمرَ علينا الطَّعام. هناك العديدُ من الإيطاليِّين في الشمال الشرقيّ، وتوسَّلَتْ إلينا إحدى العائلات التي لديها ثلّاجةٌ ملآنةٌ قائلة: "أرجوكم- لا نريدُ المزيدَ من المعكرونة!".

من ناحيةٍ أُخرى، وجدَ بعضُ الغرباء وسائلَ مُجدِيةً للتَّعبير عن تضامنهم. بدأ خزَّافٌ مشهورٌ من كاليفورنيا العملَ على صُنْع مزهريَّاتٍ تذكاريَّة لإحياء ذكرى كلِّ طفلٍ مُتوفًّى. وتطوَّعَ صانعُ لحفٍ في ميريلاند (Maryland) لصُنْع عشرين لحافًا تذكاريًّا يُدمجُ فيها صُوَرَ الأطفال وتذكاراتهم. واجتمعَ فنَّانو الصور معًا لإعداد صورة تذكاريَّة لكلِّ ضحيَّة. قدَّمَتْ مثل هذه المبادَرات برهانًا دائمًا لمدينة نيوتاون أنَّ الأُمَّة تهتمُّ بخسارتها.

إنَّ واحدةً من اللفتات الأكثر ملامسةً للمشاعر، صدرَتْ عن طلَّاب مدارس آخرين. بناءً على اقتراح أحَدِ الآباء من ساندي هوك، أرسلَ رئيسُ رابطة الآباء والمدرِّسين والطلَّاب في كونكتيكت رسالةً إلكترونيَّةً إلى مدارس كونكتيكت طلبَ منهم فيها أن يصنعوا من الأوراق نُدفًا ثلجيَّة (شبيهة بالأوريغامي- فنِّ طيِّ الأوراق) للمساعدة على تزيين المدرسة الجديدة التي سيَداومُ فيها طلَّاب ساندي هوك"[٢٥]. انتشرَ الطلبُ على نحوٍ واسع. في غضون يومَين وصلَ أوَّلُ صندوقٍ من أوراق الندف الثلجيَّة إلى مكتبه، وسرعانَ ما بدأتْ شاحنات شركة التوصيل ومقطوراتها تصل تِباعًا لتُفرِّغ الآلافَ والآلاف من الصناديق من كلِّ ولايةٍ ومن خمسين دولة أجنبيَّة. قالَ لمصوِّرِ محطَّةِ سي بي أس (CBS) بينما هو يسيرُ حول الصناديق التي ملأتْ كلَّ زاويةٍ من زوايا مكتبِ رابطة الآباء والمدرِّسين والطلَّاب ومستَودَعٍ قريب: "لم تكُنْ لديَّ أيَّة فكرةٍ عمَّا كنتُ قد بدأتُه. إنَّه حرفيًّا انهيارٌ ثلجيّ". بعد أن زيَّنوا كلَّ مدرسةٍ في المقاطعة، بقيَ لديهم الملايين منها.

كان على ندف الثلج الورقيَّة ملاحظاتٌ من الأولاد بخطِّ اليد. بعضها اشتملَ على ما جُمع في حصَّالة الأطفال مغلَّفٌ بورق السيلوفان (Cellophane)، أو على بطاقات كرة القدم أو البايسبول. قالَ أحَدُ التلاميذ في الصفِّ الأوَّل من مدرسة ساندي هوك: "أشعرُ كأنِّي سأبكي. إنَّهم أطفالٌ مثلنا". تتجاوبُ المجتمعاتُ السليمة مع ضحايا الصدمات النفسيَّة بطريقةٍ فَظَّة أحيانًا، وبطريقةٍ مؤثِّرة أحيانًا أخرى. الرسالة الجوهريَّة بسيطة: أنتم لستُم وحدَكم.

بصورةٍ مثاليَّة، ينبغي أن يُطبَّق هذا المبدأ دائمًا وليس فقط في أوقاتِ المآسي الكُبرى. استقطبَتْ إحدى الجامعات التي تُجري بحوثًا عن الألم متطوِّعين لتختبرَ طولَ المدَّة الزمنيَّة التي يستطيعون فيها أن يُبقوا أقدامَهم في دِلاءٍ ملآنة

بالمياه المجمَّدة.[٢٦] لاحظوا أنَّه عندما كان يُسمحُ لرفيقٍ بدُخول الغرفة، كان المتطوِّع يتمكَّنُ من تحمُّل الماء البارد لفترةٍ تزيدُ مرَّتَين عن الذين كانوا يتحمَّلون التجربة بمفردهم. استنتجَ القائمون على البحث، "أنَّ حضورَ شخصٍ آخرَ مهتمّ، يُضاعفُ قدرةَ الشخص على احتمال الألم". لكنَّ ثقافتَنا التي تنكرُ الألم والموتَ غالبًا ما تفعلُ عكسَ ذلك؛ حيث إنَّنا نَضَعُ الأشخاصَ الذين يعانون في المستشفيات ودور الرعاية ونعزلهم عن الاتِّصال العاديِّ بالآخرين. في الغالب، يموتُ شخصان من ثلاثةٍ وحيدين في مؤسَّساتٍ كهذه.

يُبيِّنُ كلُّ استِطلاعٍ بأنَّ الشخصَ المرتبطَ بمجتمعٍ يرعى ويهتمُّ- يُشفى بصورةٍ أسرعَ وبشكلٍ أفضل. إنَّ أفضلَ ما يُهزَم به "أعداء الشفاء" كما يُعرَفون، مثل الإجهاد، والشعور بالذَّنب، والغضب، والقلق، والشعور بالوَحدة- هو مشاركةُ المجتمع الوجدانيَّة. إذا لم يكنْ عليك أن تقلقَ بشأن الفواتير الطبِّيَّة أو بخصوص مَنْ سيَعتني بأولادك أو حتَّى بحيواناتك الأليفة عندما تذهبُ لإجراء عمليَّةٍ ما، فإنَّك ستُشفى بصورةٍ أفضل. في إحدى الدراسات الخاصَّة بمرضى سرطان الثدي النُّقيلي (Metastatic Breast Cancer)، كانت المرأة المواظِبةُ على حضورِ مجموعةِ دعمٍ أسبوعيَّة لمدَّة سنة، تشعرُ بحالٍ أفضلَ من غيرها، وعاشَتْ سنتَين تقريبًا أكثرَ من النساء اللاتي لم يحضرْنَ المجموعة، مع أنَّ كلتا المجموعتَين كانتا تخضَعانِ للعلاج الكيمياويِّ والإشعاعيِّ نفسِه.

سألَ أحَدُ الأشخاص أسقفًا لوثريًا: "ما أفضلُ نصيحةٍ يمكنُ أن يقدِّمَها راعي كنيسةٍ أو مرشدٌ إلى امرأةٍ في ريعان شبابها تواجِهُ مشكلاتٍ صحِّيَّةً مدمِّرة؟" فكان جوابُه: "كان عليها أن تكونَ عضوًا فاعلًا في رعيَّة كنيسةٍ حيويَّةٍ للسنوات العشرين الماضية".[٢٧]

لا تُلحِق الضرر

قال الرسولُ بولس عن مجتمعٍ سليم أو مُعافى: "فإنْ كان عضوٌ واحدٌ يتألَّم فجميع الأعضاء تتألَّم معه، وإنْ كان عضوٌ واحدٌ يُكرَّم فجميعُ الأعضاء تفرحُ معه"[٢٨]. إنَّ المجتمعَ المسيحيَّ المعروفَ في جميع أنحاء العالم برمز الصليب وبممارستنا المنتظمة لعشاء الربَّانيّ "اصنعوا هذا لذكري"[٢٩]، ينبغي أن يكونَ قادرًا على تقديمِ مساهمةٍ فريدةٍ من نَوعها إلى المتألِّمين. للأسف، وكما كنتُ قد سمعتُ مِرارًا وتَكرارًا في الغالب، "جعلَتِ الكنيسةُ الأمورَ أسوأ".

عندما قتلَ التسونامي في إندونيسيا ربعَ مليون شخصٍ في يَومٍ مُشمسٍ عام ٢٠٠٤م، ألقى علماءُ طبقات الأرض باللّائمة على تمزُّقٍ أحدَثَه ضَغطٌ دافعٌ على قاع البحر مِمّا أثارَ مَوجةً عملاقة. لكنَّ بعض المبشِّرين الذين يظهرونَ على شاشات التلفزة أرجعوا السببَ بدلًا من هذا إلى غضبِ الله من الأمم "الوثنيَّة" في تلك المنطقة، والتي كانت تضطهد المسيحيِّين. وبصورةٍ مشابهة، أرجَعَ أحَدُ القادة المسيحيِّين سببَ حدوث التسونامي في اليابان عام ٢٠١١م إلى حقيقة أنَّ "اليابان هي تحت سيطرة إلاهة الشمس".

عندما قتل الإرهابيُّون ٣٠٠٠ شخصٍ باصطدام الطائرات بمركز التجارة العالميّ، ألقى أحَدُ الأُصوليِّين البارزين في ولاية ڤيرجينيا باللَّوم على "الوثنيِّين والذين يمارسون عمليّات الإجهاض والداعين إلى المساواة بين الجنسَين والمثليِّين جنسيًّا الذين ينشطون في مجال محاوَلة جَعْل ذلك نمطَ حياةٍ بديلًا، ومنظَّمة الحرِّيات المدنيَّة الأميركيَّة (ACLU)، ومجموعةِ الشعب لأجل الحياة على الطريقة الأميركيَّة (People for the American Way)... إنّي أوجِّه هذا الشيءَ نحوكم وأقول: أنتم ساعدتُم على حدوث ذلك".

عندما تُوُفِّي عشرون طفلًا وستَّة مدرِّسين على أيدي مُطلق النار في نيوتاون، عزَتْ شخصيَّةٌ إذاعيَّةٌ معروفةٌ جدًّا السببَ إلى الله الذي "سمحَ بأن تحلَّ الدَّينونة علينا"؛ لأنَّنا قَبِلنا بأمورٍ مثل الإجهاض وزواج المثليِّين. وقال قسٌّ/ سياسيٌّ إذاعيٌّ آخر: إنَّ الله "اختارَ عدم إيقافِ ذَبْحِ هؤلاء الأبرياء الصغار؛ لأنَّنا نُبقي الله خارجَ المدارس".

إنَّ تصريحاتٍ متطرِّفةٍ كهذه من أشخاص نصَّبوا أنفُسَهم ناطقين، حصلَتْ على تغطيةٍ إعلاميَّةٍ واسعة. وبعدَ كلِّ كارثةٍ كُبرى، يمكنكَ أن تذهبَ إلى شبكة الإنترنت وتقرأَ مجموعةً متنوِّعةً واسعةً من المسوِّغات اللَّاهوتيَّة التي تحاولُ جميعُها- مثل أصدقاء أيُّوب- أن تفسِّر ما حدثَ بوصفه إظهارًا لخُطَّةِ الله (حثَّ أليفاز أيُّوب قائلًا: "اذكُرْ مَن هلكَ وهو بريءٌ وأين أُبيدَ المستقيمون"[٣٠]- وهو غير مدركٍ في تلك اللحظة أنَّه كان يشاركُ في دراما الدَّحْض). إنَّ النظريَّات التي تعزو سببَ الكوارث إلى دَينونة الله، تبدو أشبَهَ بالكارما (Karma) البوذيَّة منه بالعناية الإلهيَّة. لماذا نستمرُّ في الاعتقاد أنَّ الخيرَ والشرَّ والألم والمتعةَ يُوزَّعون وَفقًا لاستحقاقنا، في الوقت الذي يعلِّمُ فيه سفر أيُّوب عكسَ ذلك؟

يُجهِدُ أتباعُ كالڤن الملتزمون أنفسَهم بتفسير أسباب الكوارث، وكذلك كلَّ شيءٍ آخر، بوصفه تعبيرًا عن إرادة الله المهيمنة. إنِّي أتابعُ حُجَجَهم مع بعض التعاطُف، لكنِّي أتساءل، لماذا لم يستخدمْ يسوعُ قَطُّ مثل هذا المنطق مع الأشخاص المتألِّمين الذين قابلَهم؟ لا أرى يسوعَ بتاتًا يُحاضِرُ الناسَ عن ضرورة قبول فقدان البصر أو العَرَج بوصفه تعبيرًا عن إرادة الله السرِّيَّة. لقد شفاهُم، بدلًا من ذلك. علَّمْنا أن نصلِّيَ قائلين: "لتكُنْ مشيئتُك كما في السماء كذلك على الأرض"[٣١]، ووجَّهَنا لنعملَ باجتهادٍ لتَحقيق ذلك الهدف. ما دُمنا لا نتوقَّعُ في السماء وجودَ أيَّةِ حروبٍ أو

أعمالِ عنفٍ مسلَّحة أو أعمالٍ إرهابيَّة أو كوارث طبيعيَّة- حقًّا، لا دموع أو موت- اخترتُ أن أتحدَّثَ بما يرغبُ الله فيه للبَشر على الأرض، تاركًا تعقيدات "مشيئة الله" للَّاهوتيِّين. إنَّ الفترةَ التي تَلي الكارثة ربَّما تكونُ أسوأَ وقتٍ لذِكْرِ عبارةِ "الله على العرش".

إنَّ الكلمات، مهما كانت صادرةً عن حسن نيَّة، قد تُضيفُ المزيدَ من الألم على وَضْعِ محزنٍ أصلًا. إنَّنا نقول: "لا بدَّ من وُجود سببٍ" عندما يفقدُ أحَدُهم عملَه ويُمنَع من فكِّ رهن منزله- أجل، لكنْ أيُّ سببٍ يبدو معقولًا في وقتٍ كهذا؟ إنَّ عبارةَ "لا يُحمِّلنا الله ما لا طاقةَ لنا بحمله" تبدو جَوفاءَ بالنِّسبة إلى شخصٍ على وشك الانهيار. يتضمَّنُ فيلم كيڤن كوستنر (Kevin Costner) بعنوان "الحرب" (The War) مشهدًا يحملُ فكرةً روحيَّةً مكرَّرةً أُخرى. بعد أن تُوُفِّيَ أحَدُ قدامى المحاربين في ڤيتنام في حادثٍ مَنجَم وهو يحاولُ أن ينقذَ حياةَ أحَدِ الأصدقاء، تحاولُ زوجتُه أن تعزِّيَ ابنَهما قائلةً: "يريدُه الله في السماء". يصرخُ الطفل نحو السماء: "أجل، لكنِّي أحتاجُ إليه أكثرَ ممَّا تحتاجُ أنت إليه". أنا أفضِّل (وأعتقدُ أنَّه أكثرَ صحَّةً من الناحية اللَّاهوتيَّة) ردَّ فعل راعي الكنيسة في الجنازة في شيكاغو: "اللعنةُ عليكَ أيُّها الموت". إذا كنَّا نشعرُ بالاستياء من حالة هذا الكَوكب، فيمكنني أن أتخيَّل شعورَ الله.

حتَّى حقيقةٌ روحيَّةٌ مثل أنَّ "كلَّ الأشياء تعملُ معًا للخير"[٢٢] يمكنُ أن تكونَ أشبَهَ بضَربةِ مِطرقةٍ إذا ما قيلَتْ في وقتٍ غير مناسب. الذين يقولون إنَّه ينتجُ عن المعاناة خَيرٌ أعظمُ إنَّما يقدِّمون تعزيةً شحيحةً للأشخاص العاديِّين الذين يَحزَنون على ما فَقَدوه ويتساءلون كيف يستطيعون استئنافَ حياتِهم. كتبَتْ لي مؤخَّرًا امرأةٌ غاضبةٌ عن "خطف" جنازة والدتها: "كان هناك المرسَلون الذين اقتربوا منِّي مباشرةً بعد الخدمة ليقولوا لي بابتسامة إنَّه «إنّ

كانَ شخصٌ واحدٌ قد قبِلَ السيِّدَ المسيحَ خلال الخدمة، يكون مَوتُ والدتِكِ يستحقُّ هذا العناء».

بعد انفجارِ مصنع السماد الكيماويِّ في تكساس، أجرَتْ محطَّة سي أن أن (CNN) مقابلةً مع امرأةٍ نَجَتْ من انهيارِ دار الرعاية التي كانت تقيمُ فيها. قالت: "أشكرُ ملاكي الحارس". إنَّها مشاعرُ مفهومة، لكنْ لم يسَعْني إلَّا أن أتساءلَ كيف بدا ذلك التعليقُ لأُسَرِ أولئك الذين لم تُتَحْ لهم النجاة. ثمَّ قرأتُ صِدفةً قصَّة جو بيرتي (Joe Berti)[٣٢] الذي عبرَ خطَّ النهاية في سباق ماراثون بوسطن قبل ثوانٍ من انفجار القنبلة الأولى. بعد عدَّة ساعاتٍ محمومةٍ أمضاها في محاوَلةِ لقاء عائلته في الفَوضى الحاصلة، طارَ إلى بيته في تكساس حيثُ شهدَ بعد ذلك بيَومَين وهو في رحلة عمل، انفجارَ مصنع الأسمدة الكيماويَّة، وهو انفجارٌ هزَّ سيَّارتَه وأمطرَ الركامَ من حوله. دعاه بعضُهم بلَقب صاحب أسوأ الرجال الأحياء حَظًّا، ودعاه البعض الآخر الرجل الأكثر حظًّا. كان ردُّ فعل زوجة بيرتي حكيمًا ومتوازنًا. قالت: "نحن نشكر الله لأنَّه كان رحيمًا بنا. نحن إنَّما نصلِّي للأشخاص الذين كانوا أقلَّ حظًّا منَّا بكثير".

بعد أن أمضيتُ بعضَ الوقت في اليابان ونيوتاون، اعتمدْتُ اختبارًا من قسمَين أحتفظُ به في فكري قبل أن أقدِّم الإرشادَ إلى شخصٍ متألِّم. أوَّلًا، أسألُ نفسي كيف ستَبدو هذه الكلمات بالنِّسبة إلى أمٍّ ودَّعَتِ ابنتَها بقبلةٍ عندما وضعتها في حافلة المدرسة، ثمَّ في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم استُدعِيَت لتتعرَّفَ جسدَها الدامي؟ هل ستجلبُ كلماتي الراحةَ والعزاءَ أو ستُفاقِمِ الألم؟ ثمَّ أسألُ نفسي: ماذا سيقول يسوع لتلك الأمّ؟ قلَّةٌ من التفسيرات اللَّاهوتيَّة تنجحُ في تلك الاختبارات. الطَّريقةُ الوحيدةُ التي أعرفُها لأتَجاوَبَ بالتَّعزية والشفاء، كما فعلَ يسوع، هي أن أقبَلَ وأتبنَّى حزنَ الأمِّ وأوكِّدَ لها بأنَّ

الله يشعرُ بالحزن والأسى أكثرَ ممّا تشعرُ هي بهما. على حدِّ قَول اللاهوتيِّ ديفيد بنتلي هارت: "عندما أرى وفاةَ طفل، لا أرى وجه الله بل وجه عدوِّه... وبدلًا من أن يُبيِّن لنا كيف أنَّ دموعَ فتاةٍ صغيرة تتألَّم في الظلام كانت ضروريَّة لبناء الملكوت، فإنَّه سيُقيمها ويمسح كلَّ الدموع من عينَيها".[٣٤]

خُلاصة القول إنّي أتجنَّب الإجابة عن السؤال "لماذا؟"؛ لأنَّ أيَّة محاوَلة ستكونُ حَتْمًا ناقصةً وقد تضعُ الملح على جرحٍ مفتوح. وبوصفنا أتباعَ يسوع، نستطيع أن نقدِّم بدلًا من ذلك حضورًا يتَّصفُ بالمحبَّة والرأفة قد يساعدُ على تضميد الجراح وشفاء القلب المنكسر. الشكر لله، رأيتُ الكنيسةَ تفعلُ ذلك حقًّا. ذهبتُ إلى نيوتاون بناءً على دعوةٍ من كنيسةٍ أرسلَتْ أربعةَ مرشدين إلى مركز الإطفاء حيث كان الأهالي القَلِقون ينتظرون أخبارًا عن مصير أولادهم، وقد جمعَتْ هذه الكنيسةُ مبلغًا كبيرًا من المال لتَقديم المشورة المستمرَّة للعائلات. منذ المأساة، بدأتْ ستُّ أمَّهاتٍ لأطفالٍ قَتْلى يشارِكْنَ في اللقاءات المنتظمة في تلك الكنيسة التي كانت واحدةً من كنائسَ عدَّةٍ مدَّتْ يَدَ العَونِ لها.

في اليابان، قابلْتُ فرقًا من الفيليبِّين وألمانيا وسنغافورة والولايات المتَّحدة منهمكةً في إعادة البناء. ومنظَّماتٍ مثل هابيتات فور هيومانيتي (Habitat for Humanity) وسامارِتان پيرس (Samaritan Purse) حشدَتْ قواها مباشرةً بعد الزلزال، وكانت، بعد مرورِ سنةٍ على حدوثه، لا تزالُ تُرسلُ أطقُمًا للمساعدة في عمليَّة الإنعاش. مع أنَّ الكنيسة في اليابان تمثِّل ١٪ فقط من عدد السكَّان، أخذَتِ المنظَّماتُ المسيحيَّةُ على عاتقها قيادةَ جهودِ إعادة البناء، وصارَتْ بعضُ الكنائس اليابانيَّة مراكزَ تَوزيع للأطعمة والمؤن. أمَّنتْ إحدى الكنائس ملجأً لأكثر من ألفِ مهجَّرٍ في الأشهر القليلة الأولى بعد التسونامي.

قابلتُ بعضَ المقاولين المتقاعدين وعمَّال البناء الذين سجَّلوا أسماءَهم لدى منظَّمةِ سامارِتان بيرس لإعادة بناء البيوت التي جرفَتْها أمواجُ التسونامي. كانوا يُقيمون في مساكنَ ضيِّقةٍ لعامَّة الشعب، وكانوا يعمَلون ساعاتٍ طويلةً دون مقابل. قال لي أحَدُهم: "نحن لا نقتنص. لَسنا في حاجةٍ إلى عملِ ذلك- الناس يعلَمون سببَ وُجودِنا هنا. نحن ببساطةٍ أتباعُ يسوعَ ونحاول أن نجسِّدَ وصاياه. قبل أن نسلِّمَ المفتاحَ إلى مالكي المنازل، نسألهم إذا كنَّا نستطيعُ أن نصلِّيَ لنُباركَ المنزل. لم يرفضْ طلبَنا أحَدٌ حتَّى الآن".

وضعَتِ الكنيسةُ في العصور الوُسطى قائمةً لسبعة أعمالِ رحمة لتكونَ مقابلة لقائمة الخطايا المميتة السبع: إطعام الجياع، تقديم الماء للعطشى، توفير الثياب للعراة، توفير المسكن للمشرَّدين، زيارة المرضى، افتداء المأسورين، دفن الموتى. في كلِّ يوم، يعملُ جيشٌ من عمَّال الإغاثة والمتطوِّعين في توهوكو على تنفيذ أعمال الرحمة هذه. لكنَّنا لا نستطيعُ كلُّنا أن نخدمَ في الخطوط الأماميَّة لأعمال الرحمة. كما ذكَّرتُ الموظَّفين الذين يعملون لدى ناشري في طوكيو في اليوم الذي غادرتُ فيه، وضَعَتِ الكنيسةُ قائمةً إضافيَّةً لأعمال الرحمة الروحيَّة: تعليم الجاهلين، إرشاد المشكِّكين، إنذار الخطاة، تحمُّل الأخطاء بصبر، مسامحة الإساءات عن طيب خاطر، تعزية الحزانى، الصلاة لأجل الأحياء والأموات. إنَّ الكنيسةَ في اليابان، وهي أقلِّيَّةٌ ضئيلة في أُمَّةٍ حزينةٍ متألِّمة، تسعى كذلك إلى ممارسة هذه الأعمال الأقلِّ ظُهورًا.

انطلَقَ جون ماركس (John Marks)[٣٥]، وهو منتجُ البرنامج التلفزيونيِّ ٦٠ دقيقة، في رحلةِ بحثٍ دامَتْ سنتَين ليتحرَّى أمرَ الإنجيليِّين، وهم المجموعة التي ترعرعَ بينها ولاحقًا رفضَها. ألَّفَ كتابًا عن بحثِه بعنوان **"أسباب الإيمان: رحلةُ رجلٍ واحدٍ بين الإنجيليِّين والإيمان الذي تركَه وراءَه"**

(Reasons To Believe: One Man's Joumey Among the Evangelicals and the Faith Left Behind). إنَّ ردَّ فعل الكنيسة على إعصار كاترينا بدَّل نظرتَه وصارَ سببًا رئيسًا للإيمان. كانت إحدى الكنائس المعمدانيَّة في باتون روج (Baton Rouge) تُطعِمُ ١٦,٠٠٠ شخصٍ يوميًا على مدى عدَّة أسابيع، وقدَّمتْ كنيسةٌ أُخرى المسكنَ لنحو ٧٠٠ شخصٍ من الذين جرى إجلاؤهم فصاروا دونَ مأوى. وبعدَ سنواتٍ من الإعصار؛ وبعد أن توقَّفتِ المساعداتُ الفدراليَّة بفترةٍ طويلة، كانت شبكةٌ من الكنائس في الولايات المجاورة ترسلُ باستمرارٍ فرَقًا منتظمةً للمساعدة في إعادة بناء البيوت. كان أكثر ما لفتَ انتباه مارك أنَّ جهودَ جميع الكنائس هذه تخطَّتْ خطوطَ العنصريَّة وحواجزَها في عُمْقِ الجنوب. وكما قالَ له أحَدُ العمَّال: "كان لدينا البِيضُ والسُّود والأميركيُّون اللَّاتينيُّون والڤيتناميُّون ومواطنو لويزيانا الطيِّبون... كنَّا نقولُ ببساطة: فلنُساعِدِ الناس. هذه ولايتنا. سنَدَع الجميعَ يعملون على تسوية تلك الأمور الأُخرى. علينا أن نطهوَ بعضَ الأرزّ".

ويخلُصُ مارك إلى القَول: "أنا أزعمُ وأقولُ إنَّ هذه كانت نقطةَ تحوُّلٍ في تاريخ المسيحيَّة الأميركيَّة... لم يؤثِّرْ شيءٌ أكثر بلاغةً في المؤمنين وغير المؤمنين الذين كانوا يولون اهتمامًا بما يحدُثُ أكثرَ من نجاح مجموعاتٍ من المتطوِّعين المؤمنين قياسًا بالانهيار شِبْهِ الكامل للجهود الضخمة للحكومة العَلْمانيَّة. كشفَتِ العاصفةُ عن حقيقةٍ لا غبار عليها. قرَّرَ المزيدُ والمزيدُ من المؤمنين أنَّ الطريقةَ الوحيدةَ لاستعادة أميركا هي من خلال الخدمة. لم يَعُدِ الإيمانُ ينتقلُ بالكلام، بل بالعمل".

الجزء ٣

عندما استغرقَ الله في النَّوم

في تشرين الأوَّل/أكتوبر ٢٠١٢م، قمتُ برحلةٍ إلى البلقان، المنطقة المضطربة التي انزلقَتْ إلى حربٍ أهليَّة جرَّاء تقسيم يوغوسلاڤيا. سألَني ناشري الكرواتيُّ ذاتَ صباح: "هل ترغبُ في القيام بجولةٍ في سراييڤو (Sarajevo)؟ يمكن لتلك المدينة حقًّا أن تسمعَ محاضرةً حول موضوع «أين الله عندما أتألم»". ولأنِّي تعرَّفتُ اسمَ سراييڤو من حروب التسعينيَّات من القرن المنصرم؛ ولأنَّه كان لديَّ فضولٌ لأنْ أعرفَ المزيد- وافقْتُ بسرعة.

بينما كنَّا نقود السيَّارة على الطريق السريع من كرواتيا إلى البوسنة، توقَّفتْ حركةُ السير فجأةً، فُتحت أبواب السيَّارات وخرج السائقون للتَّدخين، وبدأ كلُّ واحدٍ يتكهَّنُ حول ما تسبَّبَ في التأخير. أهو حادثٌ؟ أعمال صيانة؟ كلَّا، تبيَّن لاحقًا أنَّ أشخاصًا كانوا يمسَحون الحقول المجاورة بحثًا عن الألغام التي خلَّفتها الحربُ التي انتهت قبل ما يقربُ من عقدَين من الزمن. قال مُضيفي: "نرحِّبُ بك في يوغوسلاڤيا السابقة!" زرعَ المتحاربون أكثرَ من خمسة ملايين لغمٍ خلال الحرب، ولا تزالُ هذه

الألغام تقتلُ المزارعين والمشاة والأولادَ في أثناء لعبهم، أو تشوِّههم أحيانًا.

عندما وصلْنا أخيرًا إلى الحدود البوسنيَّة، تغيَّر العالم خارجَ نافذة السيَّارة بصورةٍ مفاجئة. الطريق السريع الضخم من أربعة مسارب صارَ طريقًا متعرِّجًا يعجُّ بالحفر. وكانت لوحات الإعلانات وإشارات الطرق تستخدم الحروف الرومانيَّة لأوروبا الغربيَّة والحروف السيريليَّة للشرق. أمَّا الأمرُ الذي كان الأكثر إثارة للدَّهشة بالنسبة إليَّ هو أنَّ نصفَ البيوت كانت خاليةً ونوافذُها مُحطَّمة وقد أتلفَتِ النيرانُ أجزاءَها الداخليَّة. شرحَ مُضيفي قائلًا: "أجل، هذا تذكيرٌ بحملة التطهير العرقيِّ الصربيَّة. لقد أرغموا جميعَ الأقلِّيَّات غير الصربيَّة على مغادرة المنطقة".

سألتُه: "مَن يملك هذه البيوت الآن؟ ولماذا هي غير مأهولة؟"

"ربَّما لا يزال المالكون الأصليُّون يملكون صكَّ الملكيَّة- قرويُّون طُرِدوا في أثناء الحرب ويعيشون الآن في مكانٍ آخر. فكِّرْ في الأمر. هل سترغبُ في العَودة والمطالَبة بمنزلك في البلدة نفسِها حيثُ اغتَصبَ جيرانُك ابنتَكَ وحزُّوا رقبةَ زَوجتِك؟".

هَيمَنتْ حروبُ البلقان على العناوين الرئيسيَّة في أوائل تسعينيَّات القرن الماضي. فركَ القادةُ الأوروبيُّون أيديهم يأسًا عندما تبيَّن في نشرات الأخبار المسائيَّة أنَّ أعمالًا وحشيَّةً شبيهةً بفَظائع الحرب العالميَّة الثانية عادَتْ للظُّهور من جديد. في سلسلةٍ من الانتِفاضاتِ والحروب الأهليَّة، تُوفِّيَ أكثر من مئةِ ألفِ شخص، وهُجِّر الملايين، وتعرَّضتْ عشرات الآلاف من النساء للاعتداء في "معسكرات الاغتصاب"- جرائمُ يُحاكَم مُرتكبوها أمام المحكمة الجنائيَّة الدوليَّة. في سريبرينيتشا (Srebrenica)، جمعَ الصِّربُ كلَّ الذكور فوق سنِّ الخامسة عشرة- ما مجموعُه ثمانية آلاف- وربطوا أيديهم وراءَ ظهورهم وأطلَقوا النارَ عليهم. لا يزالُ العمَّال يحفرون القبور الجماعيَّة في محاوَلةٍ لتعرُّف الأجساد.

تبدو تقاريرُ شهود العِيان في محكمة لاهاي وكأنّها سلسلةٌ من الأهوال: نساء حوامل بُقِرت بطونهنّ؛ سُحِقَ أطفالهنَّ الذين لم يولدوا بعدُ بأعقاب البندقيّات؛ اغتصابٌ جماعيٌّ لفتياتٍ في التاسعة من العمر؛ قَطْعُ رؤوس الأطفال الصغار ثمَّ وضعها في أحضان أمّهاتهم. قال لي أحَدُ البوسنيِّين: "لا يوجَدُ إلَّا تفسيرٌ واحدٌ لما حدث: كان الله مستَغرِقًا في النَّوم".

مَن يستطيعُ أن يدركَ معنى ما حدثَ في يوغوسلاڤيا السابقة؟ لم أستطعْ بتاتًا تعرُّفَ الخصوم بوُضوح في أثناء الحرب، والأكثر من هذا، لم أستطعْ حتَّى أن ألفظَ أسماءَهم، وبدا أنَّ الأوغادَ يتغيَّرون أسبوعيًّا. باختصار، أرغمَتْ يوغوسلاڤيا الشيوعيَّة ثلاثَ مجموعاتٍ متبايِنةٍ على الاندماج معًا. حَسبَ الكرواتُ أنفسَهم أقربَ إلى الغرب، وتحالفَ الصربُ الأرثوذكس مع روسيا الواقعة إلى الشرق، وتطلَّع البوسنيُّون المسلمون إلى الجنوب إلى دولٍ إسلاميَّة أُخرى للحصول على الدَّعم. بعد انهيار الشيوعيَّة بدأت البلاد تنقسم، حيثُ تمرَّدتِ الأقلّيَّات ضدَّ الصرب الأقوياء ورؤيتهم التوسعيَّة لمفهوم "صربيا العُظمى"*.

ما بين عامَي ١٩٩١ و١٩٩٥م اتَّخذَ الجنودُ الصرب، الذين ورثوا معظمَ الجيش اليوغوسلافيّ، مواقعَ لهم حول سراييڤو. تقعُ المدينةُ على قطعةِ أرضٍ تحيطُ بها التلال المشجَّرة، منطقةٌ مثاليَّةٌ لحصارٍ عسكريّ، وقمعَ الصربُ المدينةَ

* كان الكرواتُ أوَّلَ مَن قاوَموا. لم يكن لديهم جيشٌ حقيقيّ، بل مجرَّد بضع دبّاباتٍ متروكةٍ منذ الحرب العالميَّة الثانية، وبضع طائراتٍ تُستَخدَم لرشّ المحاصيل. غير أنّهم ارتَجَلوا وتعلَّموا إسقاط خزّاناتِ الغاز وأجهزة تسخين المياه على القوّات الصربيّة من آلاتِ رشّ المحاصيل. وليتفادَوا من حَظْر الأسلحة الدوليّ، أطلَقوا سراحَ رجال عصاباتٍ إجراميّة مثل المافيا من السجن، وأعطوهم شاحناتٍ ملآنة بالمال وأطلقوهم بحرّيّة لإيجاد سوق سوداء للأسلحة. ومكافأةً لهم، تبوَّأَ بعضُ هؤلاء المجرمين مناصبَ حكوميّةً رفيعة.

على مدى أربع سنواتٍ بأسلوبٍ همجيّ، وهو أطوَلُ حصارٍ في الأزمنة الحديثة، كانت تنهمرُ على المدينة كلَّ يَوم ٣٢٩ قذيفةً صاروخيَّةً وقذائف الهاون والمورتر، وعشرة أضعاف ذلك العدد في الأيَّام المزدحمة. كان القنَّاصةُ يختارون أهدافهم بالسهولة نفسها التي يطلقون فيها النار على البطِّ في بركةٍ ما: فتاةٌ في سنِّ السابعة، جدَّةٌ في السبعين من العمر، عاملُ تقديم الإسعافات الأوَّليَّة. تُوُفِّيَ ما لا يقلُّ عن ١١,٠٠٠ مدنيٍّ تقريبًا خلال الحصار، بما في ذلك ١٦٠٠ طفل. عندما امتلأت المقابر، طلب حافرو القبور إذنًا لاستخدام ملعبٍ لكرة القدم في موقع الألعاب الأولمبيَّة الشتويَّة لعام ١٩٨٤م.

كانت هذه هي أوروبا الحديثة، حيث لم يكن من المفتَرَض أن تحدُثَ مثل هذه الفظائع ثانيةً. لكنَّها وقعَتْ على مَدارِ ١٤٤٣ يومًا من القصف المتواصل على مدينة لم يكن فيها كهرباء أو تدفئة أو غاز أو خدمات هاتفيَّة. كان المصدرُ الرئيسيُّ للمياه مصنع الجعَّة الذي فتحَ بسَخاءٍ مخزونَه من مياه الينابيع للَّذين كانوا يتحلَّون بالشجاعة الكافية لتحدِّي القنَّاصة الذين كانوا يُطلِقون النار عليهم كيفما شاءوا.

حتَّى يَومنا هذا، تحملُ الأبنيةُ في سراييڤو علامات الرصاص والشظايا. وتُشيرُ اللَّوحات إلى الأمكنة حيثُ سقطَتْ قذائفُ الهاون بين المدنيِّين: ٢٢ تُوُفُّوا في هذه الزاوية، ٤٠ في مجمَّع تجاريٍّ، و٧٠ في سوقٍ قريبةٍ للموادِّ الغذائيَّة. أقمتُ في ديرٍ فرنسيسكانيٍّ جرى إصلاحه الآن، حيثُ كان قد تلقَّى ٤٢ ضربةً مباشرة.

رغمَ أنَّ الصربَ ارتكبوا معظمَ الأعمال الوحشيَّة، فإنَّ جميعَ الأطراف شاركَتْ في الذَّنب، وقد أُلقِيَ القبضُ على قادتهم وحوكِموا لارتكابهم جرائمَ

حَرْب. انتهَتِ الحروبُ أخيرًا في عام ١٩٩٩م، جزئيًّا بسبب قصف حلف شمال الأطلسيّ (NATO)، واتّفاقيّات السلام التي رعاها الرئيس الأميركيُّ حينها بل كلينتون (Bill Clinton)، وبرزَتْ أمَّة يوغوسلافيا السابقة لتصيرَ سبعَ دولٍ منفصلة، حيثُ سيطرَتْ صربيا على أكبر حصَّة من الأراضي.

لماذا هذه الوحشيَّة؟

يلتقي الشرق والغرب في الشارع نفسه في سراييڤو. إذا نظرتَ في أحَد الاتّجاهات وأنت واقفٌ في السوق، فستُقسِمُ إنَّك في ڤيينا بمبانيها الأنيقة وكنائسها ذات القباب، ومقاهي الأرصفة؛ وإذا نظرتَ في الاتّجاه الآخر، ستعتقدُ أنَّك في إسطنبول بمتاجرها لبَيع الشاي وسوق التوابل حيث تتفحّص النساء المسلمات ما حولهنّ. في الواقع، إنَّ المعاركَ التاريخيَّةَ التي اندلعَتْ بالقُرب من المكان أوقفَتِ الحملةَ الإسلاميَّة لاحتلال أوروبا في العصور الوسطى، ولم ينسَ أيٌّ من الجانبَين هذه الأحداث.

إنَّ الأشياءَ المرئيَّة التي ذكَّرتني بالمعاناة في سراييڤو تشبه ما رأيته في اليابان: أبنيةٌ مدمَّرة، سيَّاراتٌ محطَّمة، ومقابرُ ملآنةٌ بشَواهد القبور. لكنْ هنا، البشرُ هم الجُناة. يتعثَّرُ التاريخُ تحت وطأة المعاناة التي سبَّبتها كراهِيَةُ الإنسان وطموحه. كانت حرب الألفيَّة الأخيرة هذه تمثِّلُ صورةً لحقبةٍ من النزاع والإبادة الجماعيَّة رغم أنَّها تنذر بما يُسمَّى "صراع الحضارات" المتجدِّد ما بين الإسلام والغرب المسيحيّ. في غضون بضع سنوات، وجدَتِ الولاياتُ المتَّحدة- التي تدخَّلت بالنِّيابةِ عن المسلمين المهدَّدين بالخطر في البلقان- نفسَها ضحيَّةَ هُجومٍ شنَّه "طيَّارون" إسلاميُّون متطرِّفون يوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

تذكَّرتُ حديثًا أجريتُه مع بوب سيپل (Bob Seiple)، رئيس جمعيَّة وورلد ڤيجن (World Vision) آنذاك، مباشرةً بعد عَودته من رواندا في أثناء المجازر هناك. في أثناء وُقوفه على أحَدِ الجسور، شاهدَ ألوفَ الأجساد المنتفخة طافيةً على سطح النهر من تحته. قتلَ رجال قبيلة الهوتو (Hutu) ببَلْطاتٍ عريضةٍ نحو مليون إنسان من قبيلة التوتسي (Tutsi)– جيرانهم، من أبناء أبرشيَّتهم، وزملاء الدراسة- لأسباب لم يستطع أحَدٌ حتَّى أن يبدأ في شَرحِها. قال سيپل: "كانت تلك أزمةَ إيمانٍ بالنسبة إليّ. لا توجَدُ ألفاظٌ للتَّعبير عن رعبٍ كهذا. استخدمَ أحَدُهم كلمة البهيميَّة– كلَّا، هذا يُهين البهائم؛ إذ إنَّ البهائمَ تقتلُ لأجل الحصول على الطعام لا من أجل المتعة. إنَّها تقتلُ فريسةً أو فريستَين في كلِّ مرَّة، وليس مليون فريسةٍ تنتمي إلى نَوعها دون أيِّ سبب. بقيتُ أفكِّرُ في الآية من رسالة يوحنَّا الأولى "الذي فيكم أعظم من الذي في العالم". هل يمكنني أن أصدِّق هذا الوعد وأنا أنظرُ إلى نهرٍ صبغَه الدمُ البشريُّ بلَونٍ قرمزيّ؟".

وقفتُ إلى جانب نهرٍ يجري متلوِّيًا بصورةٍ جميلةٍ عبر وسط مدينة سراييڤو وهذه الكلمات لا تغيبُ عن فكري، مُدركًا أنَّه قبل مدَّة ليست ببعيدة سالَتْ مياهُه بلَونٍ قرمزيٍّ أيضًا مصبوغةً بالدَّم البشريّ. زرتُ معسكراتِ الاعتقال النازيَّة في أمكنةٍ مثل أوشڤايتز (Auschhwitz) وداشو (Dachau) وبيرغن–بيلسن (Bergen-Belsen)، وهي نصبٌ تذكاريَّة شاهدة على ذلك النوع من الأفعال غير الإنسانيَّة التي هزَّت سيپل (Seiple). لقد قابلتُ الروسَ والصينيِّين الذين نجوا من أسوأ الممارسات الوحشيَّة الشيوعيَّة. والآن بعد بضعة أيَّام في سراييڤو، قابلتُ مدنيِّين عاديِّين في مدينةٍ أوروبيَّةٍ حديثةٍ حاربوا المجاعةَ حتَّى عندما كان جيرانُهم السابقون يستخدمونهم ليكونوا هدفًا للتَّدريب في عمليَّةِ إطلاقِ نارٍ ساديَّةٍ على عددٍ كبيرٍ منهم.

سألتُ صحافيًّا احتفظَ بمذكّراتٍ خلال سنوات الحصار الأربع بكاملها: "لماذا هذه الوحشيَّة؟" نظرَ إلى يديه مُرغِمًا نفسَه على استرجاع تلك الأيّام. رُغمَ أنَّ بعضَ الذّكريات امّحتْ، فإنَّ الندوبَ التي تركَتْها ما تزالُ هناك. "لماذا؟ هذا هو السؤال الذي لا جوابَ عنه. هؤلاء كانوا أصدقاءَنا وجيرانَنا، والآن يُطلِقون النارَ علينا ويفجّرون بيوتَنا. تكتبُ الفيلسوفة حنًّا أرندت (Hannah Arendt) عن تفاهة الشّرّ. إنَّ أكبرَ المجرمين كانوا آباءً وأزواجًا صالحين، أشخاصًا أعرفُهم جيِّدًا. كانوا مثل النازيّين الذين يقتلون اليهودَ بالغاز في وَضَح النهار، ثمَّ يذهَبون إلى بيوتهم ويستَمِعون إلى حفلاتٍ موسيقيَّة مع عائلاتهم".

فرّق النزاعُ في يوغوسلافيا العائلاتِ بعضَها عن بعض، كما حصلَ في الحرب الأهليَّة الأميركيَّة. تحدَّثتُ مع رجلٍ اختارَ أخواه طرفَين مختلفَين. انضمَّ أحَدُهما إلى المسلمين البوسنيّين الذين ظلّوا في سراييڤو ليُحاربوا ضدَّ الحصار، بينما هربَ الآخر من المدينة ليقاتلَ مع الكروات. ولتَعقيد الأمور أكثر، كانت أختُه متزوّجةً بصربيٍّ جنَّدَه المحاصِرون. قال: "هكذا اختلطَتْ زيجاتٌ كثيرة، صرب/كروات، كروات/بوسنيُّون، بوسنيُّون/صرب- وكثيرٌ منهم انفصلوا، كما انفصلَتِ الدولة...". وخَفَتَ صوتُه بالتّدريج.

كيف يمكن أن ينجوَ شخصٌ ما من التوتُّر المستمرّ الناجم عن العَيش تحت الحصار؟ قال لي الناجون إنَّ في وُسع المرء أن يفعلَ هذا بالاستيقاظ كلَّ صَباحٍ واتّخاذِ خطوةٍ بعد الأُخرى، والاعتماد على أفراد المجتمع للحصول على الدّعم. عاش سكّان سراييڤو على نظامٍ غذائيٍّ من حبوب الفاصوليا والمعكرونة والأرزّ، وكانت هذه مساعدةً إنسانيَّةً زوَّدتْهم بها بكمّيّاتٍ كبيرةٍ عبرَ الجوّ، قوّات من الأمم المتّحدة وحلف شمال الأطلسيّ التي كانت تسيطرُ على المطار. استغرقَ حَفْرُ نَفَقٍ طولُه ٦٠٠م تقريبًا تحت الحقول المكشوفة إلى

المطار، أربعة أشهر. وفي الليل كان الألوف من سكّان سراييفو يحتَشِدون في النفق ليَجلِبوا مؤنَ الطعام التي كانت تُبقيهم على قَيد الحياة. كان مدخلُ النفق هدَفًا جديدًا للقنّاصة الذين كانوا يصوِّبون على أيِّ شخصٍ يحاولُ أن يركضَ في ساعات النهار.

لكنَّ الجميعَ تقريبًا ذكروا أيضًا أوقاتًا جيِّدة. قال لي أحَدُ الناجين: "لم يسبِقْ لي أن حضرْتُ مثلَ هذه الحفلات، إذا وجدَ أحَدُهم مقدارًا صغيرًا من الفلفل الأحمر غير الحارّ أو توابل أخرى، فإنَّه يدعو جميعَ الجيران للاحتفال. لمدَّة تسعة أيَّام متتالية، تناولَتْ عائلتي معكرونة دون أيَّة إضافات. لم تكُنْ لدينا توابلُ أو لحومٌ أو موادٌّ منكِّهة. كانت والدتي في أشدِّ الحاجة إلى مادَّةٍ منكِّهة حتَّى إنَّها خرجَتْ وجمعَتْ بعضَ العشب لترشَّه على الطعام، فقط لتُضيفَ قليلًا من التنوُّع واللَّون. دون شكّ، تشارَكْنا تلك الوجبةَ أيضًا مع جيراننا". تُظهِرُ الدراساتُ التي أُجريَتْ على البريطانيِّين المسنِّين الذين عاشوا في لندن خلال القصف الجوِّيّ، أنَّ غالبيَّتهم يتذكَّرون تلك الأيَّام بحنينٍ شديد: بينما كان أزيزُ قاذفات القنابل يطنُّ فوق رؤوسهم، كانوا يتراجعون إلى محطَّات أنفاق القطارات حيث كانوا يغنُّون أناشيدَ وطنيَّةً ويحيُّون المدافعين من القوَّات الجوِّيَّة الملكيَّة ويشجِّعونهم، ويَنصبون أَسِرَّةً خفيفةً للنَّوم. حدثَ أمرٌ مماثلٌ في سراييفو.

انتشرَتْ نكتةٌ في المدينة: "هل تعرفون الفرقَ ما بين المتفائل والمتشائم؟ يقول المتشائم: «يا الله، لا يمكن أن تسوءَ الأمورُ أكثر من هذا»، بينما يقول المتفائل: «لا تكتئب هكذا. يمكن دائمًا أن تصيرَ الأمور أسوأ»".[١]

تذكَّرتُ امرأةٌ كنتُ قد أجرَيتُ مقابلةً معها، حيث قالَت: "فصول الشتاء كانت الأسوأ. دون كهرباء، لم تكن لدينا تدفئة، وكنَّا نحرقُ أيَّ شيءٍ في

متناول اليد لنَبقى دافئين. كان عندي طفل حديث الولادة، وُلِدَ في خِضَمّ ذلك الجحيم. كنَّا نقطعُ الأثاثَ بالفؤوس. بعد فترةٍ يُصابُ المرءُ بالخَدَر، عاطفيًّا وجسديًّا على حدٍّ سواء. ثمّ جلبَ لي أحَدُ الجيران هديَّةً لا تُقدَّر بثَمنٍ في عيد الميلاد: جذورَ شجرةٍ مغطَّاة بالتُّراب كان قد وجدَها في مكانٍ ما. بكيت. كان مسلمًا لا يحتفلُ حتَّى بِعِيد الميلاد، لكنَّه ضحَّى لنبقى دافئين. لم يسبِقْ لي قَطُّ أن حصلْتُ على هديَّةٍ بهذه القيمة، ولا أزالُ أحتفظُ بتلك الكتلة من الشجرة. لم أتمكَّن من حَرْقِها. أقولُ لكَ بكلِّ خجل، لقد أثَّرتْ فيَّ تلك البادرة أكثرَ ممَّا أثَّر فيَّ سماعُ أنَّ أكثرَ من ثلاثين شخصًا لقوا حتفهم".

رفعَ عازفُ تشيلو شجاعُ معنويَّاتِ المدينة بأكملها من خلال ردِّه على مجزرةٍ قُتِل فيها اثنان وعشرون مدنيًّا كانوا ينتظرون دَورهم للحصول على الخبز. لمدَّةِ اثنين وعشرين يَومًا متتالِية، كان يَخرجُ من شقَّته وهو يرتدي ملابسَ السهرة السوداء للرِّجال وقبَّعة رسميَّة، ويضعُ خشبةً لوَضْع الأرجل في موقع الهجوم بقذائف الهاون، ويقدِّم حفلًا غنائيًّا منفردًا في ذكرى الذين قتلوا. بثَّت شجاعتُه الاستثنائيَّةُ الجرأةَ في جمهورٍ من سكَّان سراييڤو ودفعَتْهم إلى الانضمام إليه، حتَّى في الأيَّام التي كانت القذائفُ فيها تنهمر بالقرب منهم.

عالمٌ ضريرٌ بلا أسنان

بمرور الشهور المملَّة، تمزَّقتِ المدينةُ التي كانت تفخرُ بتنوُّعها، مثل بقيَّة البلاد. قبل الحرب، كانت سراييڤو تتكوَّن من مجموعاتٍ عرقيَّةٍ متنوِّعةٍ وأعدادٍ كبيرةٍ من السكَّان المسيحيِّين والمسلمين والأرثوذكس، لكنَّها الآن مدينةٌ يشكِّل المسلمون فيها ٨٠٪، مع تناقُصٍ في عدد الأرثوذكس والكاثوليك بصورةٍ كبيرة،

مع عددٍ قليل جدًّا من البروتستانت. وفي كلّ تبادُلِ حديثٍ كنتُ دائمًا أسأل: "وماذا بشأن الوقت الحاضر؟ هل أنتم مستعدُّون للمصالحة؟" ما من شخصٍ أجابَ بنعم. لا تزالُ الجروحُ في آنٍ معًا، جديدةً وقديمةً جدًّا؛ لأنَّ هذه الخلافاتِ تعودُ إلى أكثر من سبعةِ قرونٍ مَضَت. قال أحَدُ القادة الصرب: "كلُّ تسويةٍ هي انهزام". وقال آخر: "كلُّ مصالحةٍ هي خيانة".

يمكنُ للصّراع في البلقان أن يندلعَ مجدَّدًا. بينما أكتبُ الآن، يُهيمنُ الاقتتالُ الدائرُ في سورية على المشهد الإخباريّ، وهذا تَكرارٌ لنَوع الأعمال الوحشيَّة التي سمعتُ عنها في البلقان. حدثَتْ إبادةٌ جماعيَّةٌ في رواندا وتستمرُّ اليومَ في جمهوريَّة الكونغو الديمقراطيَّة وفي نيجيريا. أذكرُ ملاحظةَ غاندي أنَّه إذا أخذتَ بمبدأ "العين بالعين والسنُّ بالسنّ" إلى نهايته المنطقيَّة، فإنَّ العالم بأكمله سيصيرُ ضَريرًا وبلا أسنانٍ في نهاية المطاف. لم أزُرْ بتاتًا مكانًا كهذا يحتاجُ إلى نعمةٍ وغفرانٍ لكنَّه يقاوِمُهما. يمكنُ أن تحدُثَ عمليَّةُ الشّفاء بعدَ نزاعٍ بشريٍّ مرير- كما ظهرَ في الولايات المتَّحدة بعد الحرب الأهليَّة، وفي علاقاتنا الوثيقة مع أعدائنا السابقين ألمانيا واليابان- لكنْ فقط إذا رغبَ كلا الطرفَين في ذلك. غير أنَّ الانتقامَ والكبرياء غالبًا ما يقفان حاجزًا أمامَ ذلك.

بعد ظهيرة أحَدِ الأيَّام في سراييفو، رافقَني راهبٌ فرنسيسكانيٌّ مَرِحٌ يُدعى إيفو ماركوفيتش (Ivo Markovic). قادَني بسيَّارته إلى المقبرة اليهوديَّة الواقعة على تلٍّ مرتفعٍ فَوقَ المدينة، والتي كانت أحَدَ مواقع المراقبة الرئيسيَّة للقنَّاصة الصرب في أثناء الحصار. التَفَفْنا بعضُنا حولَ بعضٍ للحماية من الرّيح الغربيَّة الباردة، ونظَرْنا إلى الأسفل على امتداد خطِّ الرؤية الذي كان القنَّاصة يلتَقِطون بواسطته فرائسَهم. دُنِّسَتْ كلُّ قطعةِ أرضٍ بطريقةٍ ما، وامتلأتْ شواهدُ القبورِ بآثار الرصاص، وتشوَّه منظرُها بالرُّسومات فانكسرَتْ وانقلبَتْ. كنتُ قد قرأت

عن ماركوفيتش في كتاب ميروسلاف ڤولف (Miroslav Volf)[٢] بعنوان: "**دون مقابل**" *(Free of Charge)*. في قريَتِه، كان البوسنيُّون الطيارون بالنسبة إليه، هم الأوغادَ الذين ذبَحوا ٢١ رجلًا بمَن فيهم تسعةُ أفرادٍ من عائلةِ ماركوفيتش- جميعهم من المسنِّين، كان والدُه أصغرَهم سنًّا حيث كان في الحادية والسبعين!

بعد أن توقَّفتِ الحرب، زارَ الأب ماركوفيتش قريَتَه الأمّ. سأفسحُ المجال لفولف ليَسردَ القصَّة:

> "احتلَّتِ البيتَ الذي اعتادَ أخوه أن يسكنَه امرأةٌ مسلمةٌ شرسة. أُنْذِرَ [ماركوفيتش] بعَدَم الذهاب إلى هناك؛ لأنَّها كانت تلوِّحُ ببندقيَّة لتَحميَ بيتَها الجديد. ومع ذلك ذهب. عندما اقترب من البيت كانت بانتظاره والسيجارة في فمها والبندقيَّة مهيَّأةٌ لإطلاق النار. قالت بصَوتٍ أشبه بالنُّباح: «ابتعدْ وإلَّا سأطلقُ النار». قال الأب ماركوفيتش بصَوتٍ لطيفٍ لكنَّه حازم: «كلَّا، لن تطلقي النار عليَّ، ستُعدِّين لي فنجانَ قهوة». حدَّقتْ فيه برهةً ثمَّ أنزلَتِ البندقيَّة وذهبَتْ إلى المطبخ. تناولَتْ آخرَ مقدارٍ من القهوة كان لديها وخلطَتْه مع القهوة المستعمَلة لتصنعُ منه كمِّيَّةً تكفي فنجانَين. وبدأ العدوَّان اللدودان يتحدَّثان بينما كانا يتشاركان في طقس الضيافة القديم: يشربان القهوةَ معًا. حدَّثته بشأن شعورها بالوَحدة، والبَيتِ الذي فقدَتْه، والابنِ الذي لم يَعُدْ من أرضِ المعركة. عندما عادَ الأبُ ماركوفيتش بعد شهرٍ قالَتْ له: «إنِّي أفرحُ برؤيتك بقدر ما أفرح لو كانَ ابني قد عادَ إلى البيت».

هل تحدَّثنا بشأن المسامحة؟ لا أعلم. وبمعنًى آخر، ليسَتْ لذلك أهمِّيَّة. أتى هو، الضحيَّة، إليها وسألها أن تستضيفه في بيتِ أخيه، الذي كانت تملكه هي دون وَجهِ حَقّ. وتجاوَبتْ هي معه. ومع أنّها حيَّته ببندقيَّة، فقد أعطَتْه هديَّةً وفرحت بحضوره. إنَّ بداياتٍ متواضعةً وصغيرةً لرحلةٍ نحو قبول الآخر تمَّتْ عبرَ طقسِ احتساء القهوة. وإذا استمرَّتِ الرحلةُ فإنّها ستَقودُ إلى أرض المسامحة".

لم أدرك أهمِّيَّة موقع المقبرة اليهوديَّة التي زرتُها مع الأب ماركوڤيتش حتَّى عدْتُ إلى وطني. قال لي ماركوڤيتش وهو يشيرُ إلى النجوم اليهوديَّة المحفورة في أنقاض المقبرة من حولنا: "من الغريب أنَّ الجاليةَ اليهوديَّة في سارايیڤو كانت مزدَهرةً في ما مضى. عندما طردَتْ محاكمُ التفتيش الإسبانيَّة اليهودَ من إسبانيا والبرتغال، رحَّبت بهم الإمبراطوريَّة العثمانيَّة المسلمة. وقد ازدهروا هنا، كما يمكنك أن ترى من نوعيَّة أحجار القبور الرخاميَّة التي دُنِّسَتْ منذ ذلك الوقت".

في مرحلةٍ ما، كان عددُ اليهود ٢٠,٠٠٠ أي خمسَ سكّان سراييڤو، التي اكتسبَتْ لقبَ أورشليم الصغيرة بسبب تنوُّعها متعدِّد الثقافات. بحلول منتصف القرن التاسع عشر، كان جميع الأطبَّاء في المدينة من اليهود، وازدهرَ خمسةَ عشرَ مكانًا للعبادة اليهوديَّة. ثمَّ بعد مئة عام حدثَتِ المحرقةُ اليهوديَّة التي أُهلِكَ فيها ٨٥٪ من يهود سراييڤو.

صرخاتٌ تطلبُ المساعدة

من كلِّ ركنٍ من أركان سراييڤو كنتُ أسمعُ أصداءً للسؤال الذي يؤرِّق التاريخ البشريّ: لماذا لا يتدخَّلُ الله؟ لماذا لم يُستَأصل هتلر قبل أن ينقلبَ

على اليهود؟ لماذا لم يخلِّصْ سرايفو بعد أربعة أيَّام وليس بعد أربع سنين؟ قالَتْ إحدى الشخصيَّاتُ في كتاب تشايم پوتوك (Chaim Potok)[٣] بعنوان "اسمي آشر ليف" (My Name is Asher Lev): "آه، إنَّه عالمٌ غريب. في بعض الأحيان أعتقد أنَّ لدى سيِّدِ الكَونِ عالمًا آخر يهتمُّ به، وأنَّه يُهمِلُ هذا العالم، حاشا أن يكون ذلك".

بدأتُ أرى تاريخ البلقان بوصفه أنموذجًا مثاليًّا للأقلِّيَّات المضطهَدة- مصير اليهود والموضوع المتكرِّر الحدوث في كلِّ صفحات الكتاب المقدَّس. عرفَ الشعبُ العبرانيُّ أيضًا الحربَ الأهليَّة. قادَ داوُدُ ثورةً في عهد ملكها الأوَّل شاول، لكنَّ ابنَه أبشالوم تحدَّاه في وقتٍ لاحق. بعد جيلَين انقسمَتِ الأمَّة أمَّتَين، وبذلك بدأت فترةٌ من عدم الاستقرار لا تختلفُ عمَّا حدثَ في البلقان.

خلال تلك الأوقات، كانت أناشيدُ الشكوى تمتزجُ بترانيم التسبيح، كما نرى في سفر المزامير. تقدِّر يوجين پيترسون (Eugene Peterson)، التي ترجمَتْ إعادةَ صياغةِ الكتاب المقدَّس التي تُعرَف بِاسْم الرسالة (The Message)، بأنَّ ثلثي المزامير هي مزاميرُ مراثي. يقولُ أحَدُ المزامير الذي يُنسَبُ إلى داوُد شاكيًا: "تعبتُ من صراخي. يَبس حلقي. كَلَّت عيناي من انتظار إلهي"[٤]. ويتضرَّعُ مزمورٌ آخر قائلًا: "إنَّه وقتُ عملٍ للرَّبّ. قد نقَضوا شريعتَك"[٥]. يبدو أنَّ الله يدركُ تمامًا أسبابَ احتِجاجنا، بالإضافة إلى حاجتنا لأنْ نستَنشيطَ غضبًا ضدَّ الألم.**

** التحَقَ راعي كنيستي في كولورادو بدَورةٍ دراسيَّةٍ عن المزامير ليوجين پيترسون في كلِّيَّة ريجنت (Regent). قال لي: "أحببتُ المادَّة، لكنَّي كنتُ أكرَهُ الواجبات البيتيَّة. كانت پيترسون تطلبُ منَّا أن نخرجَ إلى الهواء الطلق- ويُفضَّل أن يكونَ ذلك في الغابة الكثيفة حول حَرَم جامعة ڤانكوفر- ونردِّد بصوتٍ مسموعٍ خمسةَ مزامير يوميًّا، وكأنَّنا نقذفها نحو السماء".

في بعض الأحيان، كان "شعب الله المختار"، مثلُه مثلُ سكّان سرايقو، يجدُ نفسَه محاصَرًا حرفيًا. بعد أحَدِ هذه الاعتداءات، ذبح الأشوريُّون آلافَ العبرانيّين وثبّتوا خطّافاتٍ حديديّةً في أنوف الناجين أو شفاههم السفلى ليقودوهم عبيدًا- من هنا كانت "قبائل إسرائيل المفقودة". وذهبَتْ بابل- وهي الغازي الأجنبيُّ التالي- إلى أبعدَ من ذلك؛ إذِ احتلَّتْ أورشليم ودمَّرت هيكل الله. عندما انقشعَ الغبار، تفرَّقَ العبرانيُّون في المسكونة، ولم يتَّحِدوا ثانيةً بوصفهم أمّةً مستقلّةً إلّا بعدَ خمسٍ وعشرين قرنًا. يصفُ أحَدُ المزامير الذي كُتِب في أعقابِ تلك المأساة نبرةَ المرارة التي سمعتُها من سكّان سرايقو وهم يتحدَّثون بشأن أعدائهم: "يا بنت بابل المُخرَّبة، طوبى لمَن يُجازيك جزاءَك الذي جازيتِنا. طوبى لمن يُمسكُ أطفالكِ ويضرب بهم الصخرة".[٦]

صرخَ الأنبياءُ طالبين تدخُّل الله. طالبَ إرميا في لحظةِ تبجُّح: "لكن أكلِّمُك من جهةِ أحكامك. لماذا تنجحُ طريقُ الأشرار؟ اطمأنَّ كلُّ الغادرين غدرًا"[٧]. كان حبقُّوق أقلَّ لباقةً: "حتَّى متى يا ربُّ أدعو وأنت لا تسمع؟ أصرخُ إليك من الظلم وأنت لا تخلِّص. لِمَ تريني إثمًا وتُبصرُ جَورًا؟"[٨].

إنَّ غنى أسلوب المرثاة والشكوى في العهد القديم يُبيِّن بوُضوح أنّنا لا نستطيعُ أن نعتمدَ على الله ليتوسَّطَ بشكلٍ مباشر في التاريخ البشريِّ، مهما كانت فَظاعةُ الظُّلم. وجدَ كثيرٌ من الأشخاص الصالحين أنفسَهم، مثل العبرانيِّين وأهل سرايقو، عالقين في الحرب والاضطهاد. أفكِّر في ملايين المسيحيِّين المضطهَدين في الصين مثلًا بسبب إيمانهم، وفي الذين يواجِهون العنفَ اليومَ في دولٍ مثل سورية والعراق وإيران وباكستان ونيجيريا.

ومن مثال الكتاب المقدَّس أتعلَّم أيضًا أنَّ لدينا الحقَّ في الاحتجاج ضدَّ العنف والظلم، بل أيضًا الحقَّ في مساءلة الله عن سبب سماحِه بوُجود عالم كهذا. عندما أتحمَّلُ نصيبي الصغير من معاناة العالم، أستطيعُ أن أقولَ لله، دون أن ألقى عقابًا، كيف أشعرُ تمامًا. يلاحظُ ريتشارد روهر (Richard Rohr)[٩] أنّه مع أنَّ أصدقاءَ أيُّوبَ الورعين تحدَّثوا بتَعالٍ بشأن الله، تحدَّثَ أيُّوبُ نفسُه إلى الله- وجَّه أيُّوبُ كلامَه إلى الله مباشرةً ثماني وخمسين مرَّة.

وفي السياق نفسه، يُشيرُ حاخامٌ يهوديٌّ إلى أنَّ المزمورَ ٢٣ الذي يُستَخدَم في أغلب الأحيان بوصفه مزمورًا يجلبُ الراحةَ والعزاءَ في المستشفيات وغرف الجنازات، يجمعُ ما بين مشهدَين مختلفَين[١٠]. يبدأ بالكلمات المطمئِنة: "الربُّ راعيَّ فلا يعوزني شيءٌ"، مصوِّرًا مشهدًا من المراعي الخضراء والمياه الهادئة. في المقابل، يشملُ المشهدُ التالي أمورًا مؤلمة: "تُجاهَ مُضايقيَّ" و"وادي ظلِّ الموت". غير أنَّ المشهدَ الأوَّل المُفرح يتحدَّث بشأن الله بصورةٍ أكثرَ بُعدًا مستخدِمًا ضميرَ الغائب (أي كلماتٍ عن الله): "في مراعٍ خُضرٍ يُربضُني... يهديني إلى سُبل البرِّ..." تتحوَّلُ نبرةُ الصَّوت إلى ضمير المُخاطَب الأكثر ألفةً (أي كلمات إلى الله) بعد أن يجتازَ ناظمُ المزامير واديَ ظلِّ الموت. إنَّ مضايقيَّ لا يزالون موجودين، كما هو الشَّرّ، لكنِّي "لا أخاف شرًّا لأنَّك أنت معي..." صارَ الله قريبًا.

وتكشف هذه الكلمات القليلة ("أنتَ معي") عن الشيء الوحيد الذي في وُسعنا الاعتماد عليه في أوقاتِ الكوارث. لدينا دائمًا، ومهما كانت الأحوال، تأكيدٌ من كلمة "عمَّانوئيل" التي تعني ببساطة "الله معنا". يتضمَّنُ الكتاب المقدَّس بعضَ القصص التي تسجِّلُ تدخُّلات الله المذهلة في التاريخ، رغم أنَّ هذه نادرةُ الحدوث وتأتي بعد فواتِ الأوان لتتمكَّنَ من إنقاذ العديد من

الضحايا. في أغلب الأحيان، يعملُ الله من خلال أشخاصٍ تغيَّروا لكي يغيِّر التاريخ. نحن نصرخُ إلى الله ليفعلَ شيئًا من أجلنا، في حين أنَّ الله يفضِّل أن يعملَ في داخلنا وجنبًا إلى جنبٍ معنا.

وللدَّليلِ على هذا، أظهرَ الله تضامُنَه معنا في أكثرِ طريقةٍ حميمةٍ ممكنة: ابن الله، عمَّانوئيل، انضمَّ إلى جنسنا البشريّ. في الواقع كان إشَعياءُ النبيُّ هو أوَّلَ مَنِ استخدمَ تلك الكلمة في خِضَمِّ إحدى حروب العبرانيِّين الأهليَّة. قال إشَعياءُ في نبوَّة طبَّقَها متَّى في وقتٍ لاحقٍ على يسوع: "ها العذراء تحبَل وتلدُ ابنًا وتدعو اسمه عمَّانوئيل"[11]. وفي فقراتٍ أُخرى يَصِفُ إشَعياء الطفلَ الذي كان سيُدعى "عجيبًا مشيرًا إلهًا قديرًا أبًا أبديًّا رئيسَ السلام"[12]، والذي سيُعيد العدالةَ يومًا ما إلى الأرض.

داخل الحيّ

وجدَ نيكولاس وولترز ستورف (Nicholas Walters Storff)[13]، وهو فيلسوفٌ متميِّز في جامعة يال (Yale) أنَّ إيمانَه تعرَّضَ لاختبارٍ صعبٍ عندما تُوُفِّيَ ابنُه ذو الخمس والعشرين سنةً إثرَ تعرُّضه لحادثة بينما كان يتسلَّق أحَدَ الجبال. في كتابٍ موجَزٍ حافلٍ بالحزن بعنوان "رثاءُ ابن" *(Lament For a Son)* يفكِّر ستورف مليًّا في ما حدثَ آنذاك، ويخلُص إلى أنّنا في حاجةٍ إلى شيءٍ واحدٍ أكثرَ حتّى ممّا نحن في حاجة إلى أجوبةٍ عن السؤال "لماذا؟". نحتاج إلى التأكيد على حضور الله في حزننا. ووجدَ ستورف ذلك الحضور في الشخص الذي دُعيَ عمَّانوئيل.

لقد اختارَ الله، لسببٍ ما، ردًّا على الضيقات البشريَّة، عدم التلويح بعصا

سحريّةٍ لكي يجعلَ الشرَّ والمعاناة يختَفِيان، بل بِاحتِواء هذه الضيقات بشَخصه. كتبَ يوحنّا في مقدِّمة إنجيله، "والكلمة صارَ جسدًا وحلَّ بيننا"[14]. في وجه المعاناة، الكلمات لا تكفي. نحن في حاجةٍ إلى شيء أكثرَ من ذلك: الكلمةُ صارَ جسدًا، برهانٌ حيٌّ فعليٌّ على أنَّ الله لم يهجُرْنا. وكما عبَّر عن هذا ديتريش بونهويفر (Dietrich Bonhoeffer)[15]، "لا يستطيعُ المساعدةَ إلّا إله يعاني".

في ترجمة "الرسالة" ليوجين پيترسون[16]، تردُ الآية في إنجيل يوحنّا على هذا النحو: "الكلمة صارَ جسدًا ولحمًا وانتقلَ إلى داخل الحيّ". أيُّ نَوع من الأحياء انتقلَ إليه يسوع؟ الإجابة عن هذا السؤال تتطلَّبُ درسًا موجَزًا في التاريخ. اجتازَتْ سلسلةٌ متواليةٌ من الإمبراطوريّات العُظمى سَيرًا على الأقدام أراضي الشعب العبرانيّ، كما لو كانت تمسحُ أقدامَها على أرض الميعاد المتبجِّحة. بعد الأشوريّين والبابليّين جاءَ الفُرسُ الذين هُزِموا بِدَورهم على يدِ الإسكندر الأكبر. عندما ماتَ الإسكندر، اقتسَمَتْ مجموعةٌ من خلفائه أراضيَه، وكان الأسوأ سمعةً بينهم أنطيوخُس الرابع أبيفانيس (Antiochus IV Epiphanes)، وشكَّلَ رمزَ الوَغدِ التقليديِّ لدى اليهود، حتّى جاءَ هتلر.

بدأ أنطيوخُس في شنِّ حرب على الديانة اليهوديَّة بسبب إحباطه من الهزائم العسكريَّة في أمكنةٍ أُخرى. حوَّل هيكل الله إلى مركَز عبادةٍ للإله زيوس (Zeus) وأعلنَ نفسَه الإلهَ المتجسِّد. أرغمَ الأطفالَ الصغارَ على الخضوع لعمليّات ختانٍ عكسيَّة (بإعادة الغرلة كأنَّهم لم يُختَتَنوا سابقًا)، وجلدَ كاهنًا عجوزًا حتّى الموت لرَفْضه تَناوُلَ لحم الخنزير. وفي واحدةٍ من أكثرِ أعمالِه سيِّئةِ السمعة، قدَّمَ خنزيرًا نجسًا ذبيحةً على المذبح في قدس الأقداس، ولطَّخَ بدَمِه جميعَ الأماكن المقدَّسة في الهيكل.

أثارَتْ أعمالُ أنطيوخُس سخطَ اليهود، فانتَفَضوا بثَورةٍ مسلَّحة قادَها المكابيُّون، وهو انتصارٌ يُحتفَل بذِكراه في العيد اليهوديّ المسمَّى حانوكا (Hanukkah). لكنْ انتصارهم لم يَدُم طويلًا. فبعدَ فَترةٍ قصيرة، توغَّلَتِ الفيالقُ الرومانيَّة في فِلَسطين لقَمْع التمرُّد وعيَّنوا هيرودس "ملكًا" على اليهود. بعد الاحتلال الرومانيّ، صارَتِ الأرضُ بأكمَلِها تقريبًا خَرابًا. كان هيرودس مريضًا ويناهزُ السبعين من العمر عندما سمعَ شائعاتٍ عن ملكٍ جديدٍ وُلِد في بيت لحم، وسرعانَ ما أغرقَ عويلُ حزنِ عائلاتِ الرُّضَّع المذبوحين، ترانيمَ الملائكة المؤثِّرة "المجد لله... وعلى الأرض السلام".[١٧]

كان هذا إذًا الحيَّ الذي انتقلَ إليه يسوع: مكانًا مُنذِرًا بالسُّوء، ذا ماضٍ كئيبٍ ومستقبلٍ مخيف- ليس مختلفًا عمَّا واجَهْتُه في سراييڤو. كان العبرانيُّون في القرن الأوَّل أُمَّةً مُحتلَّةً ومُروَّعة. في حادثةٍ واحدة، صَلَبَ المحتلُّون ثماني مئة فرّيسيٍّ في يَوم واحد. تمسَّكَ اليهودُ المؤمنون بيَأسٍ بالإيمان بعمَّانوئيل، الله معنا، وهو الإيمان بأنَّه رُغمَ كلِّ المظاهر، فإنَّ الله يشاركُ مَعاناتَنا.

إنَّ قصَّةَ يسوعَ نفسِه هي قصَّةُ المعاناةِ التي قَبلَها لأنَّه هو أيضًا كان ضحيَّةَ الرُّومان. بعدَ بضعةِ عقودٍ من مَوتِ يسوع، حاصرَتِ الجحافلُ الرومانيَّة أورشليم حصارًا طويلَ الأمد دامَ أربعَ سنوات مثل حصار سراييڤو. أخيرًا، اخترقَتِ الجحافلُ أسوارَ المدينةِ وقَتَلوا نحوَ مِليونِ نَسمةٍ من سكَّانِ المدينة في ما دَعاه أحَدُ المؤرِّخين "أكبرَ عمليَّةِ ذَبحٍ متواصلة في التاريخ القديم".[١٨] كان يسوعُ قد رأى مسبَّقًا النتيجةَ وبكى على احتمالِ ما سيحدث: "يا أورشليم، يا أورشليم يا قاتلةَ الأنبياء وراجمةَ المُرسَلين إليها. كم مرَّةً أردتُ أن أجمعَ أولادَكِ كما تجمعُ الدَّجاجةُ فِراخَها تحتَ جَناحَيها ولم تُريدوا".[١٩] مرَّةً أُخرى لم يفرضِ الله سيطرتَه على الوَضْع، إنَّما تركَ للتَّاريخ أن يأخذَ مجراه.

أنعلّمُ من يسوعَ أنَّ الله إلى جانب المتألّم. دخلَ الله دراما التاريخ بوَصْفِه واحدًا من شخصيَّاتها، ليس بعَرْضِ قدرتِه الكلّيَّة بل بالطريقة الأكثر حميميَّةً واستِضْعافًا. على نطاقٍ صغير، واجَهَ يسوعُ بوصفه شخصًا أنواعَ المعاناة المعروفة لنا جميعًا. وكيف كان ردُّه؟ لقد تجنَّبَ النظريَّاتِ الفلسفيَّةَ والدروسَ اللّاهوتيَّة، ومدَّ يدَه نحو الآخرين بالشِّفاء والرأفة. غفرَ الخطيَّةَ وشفى المُبتَلين وأخرجَ الشَّرّ، حتّى إنَّه غلبَ الموت. من خلال الوقت القصير الذي أمضاه على الأرض، نكونُ لدينا ليس فقط فكرةً لامعةً ومشرقة عمَّا يخبّئه لنا المستقبل، بل أيضًا مثلًا واضحًا كذلك على الكيفيَّة التي ينبغي لنا نحن أتباعَه أن نتجاوَبَ بها مع الذين يعانون.

هل من تأثيرٍ لهذا التأكيد عن عمَّانوئيل والمثال الذي قدَّمه يسوعَ أنموذجًا لنا؟ بالتَّأكيد، لا يُجيبُ هذا عن السؤال حول سبب وُجودِ الشرّ في المقام الأوَّل، أو سبب معاناة بعضِ الناس (مثل ضحايا حصار سراييڤو) في حين يزدهرُ الأشرارُ على ما يبدو. لكنَّه يساعدُنا أن نرى الله ليس بوصفه كائنًا بعيدًا منًا ولا يتأثَّر بما نواجِهُه على الأرض، بل بوصفه الشخصَ الذي يرغبُ في اختبارِ ما نُعانيه شخصيًّا. ليس هناك دِينٌ لديه هذا الأنموذجُ عن الله الذي يقرِنُ نفسَه بالبشريَّة بعُمقٍ وتعاطفٍ مثل هذين.

إنَّنا لسنا وحدَنا بينما نختبرُ المعاناةَ، بل نختبرُها بوُجودِ الله إلى جانبنا. تدلُّ قصَّتان، على الأقلّ بالنِّسبة إلى البعض، على أنَّ هذا الاعتقادَ يُحدِثُ فرقًا. في القصَّة الأولى، يتحدَّث هنري نووين (Henri Nouwen)[20] بشأن إقامَتِه المؤقَّتة في البيرو (Peru) عندما طُلبَ منه أن يقودَ خدمةَ جنازةِ شابٍّ في السابعة عشرة. يتذكَّر نووين قائلًا: "قلتُ لنفسي إنَّ عليَّ أن أقولَ شيئًا لوالدةِ الشابّ؛ فيا لها من معاناة ويا له من: ألم ذلك المرافق لمقتَلِ ابنٍ في سنِّ السابعة عشرة! كنتُ

أشعرُ بالتوتُّر كما تكون الحالُ دائمًا عندما يتحتَّم عليكَ مواجَهةَ وَضعٍ مؤلِمٍ".

وقفَتِ الأمُّ أمامَه مع ابنَين آخرَين والعمَّة والعمِّ وأحَد الجدَّين. فكَّر في ما يمكنُ أن يستَقيَه من كلِّ ما تعلَّمه ومن التدريب النفسيِّ الذي تلقَّاه للَحْظةٍ كهذه. بدأ كلمتَه وهو يجاهدُ ليخرجَ منه الكلام: "أريدُ فقط أن أقولَ لكم إنّي أشعرُ حقًّا معكم".

"شكرًا. شكرًا أيُّها الأب. شكرًا جزيلًا". ظلَّتِ العائلةُ تردِّدُ هذه الكلمات بينما كان نووين يتلعثَمُ بحثًا عن الكلمات المناسبة.

بدأ الكلامَ ثانيةً وقال: "أريد فقط أن أقول..." لكنَّه قوطعَ ثانيةً: "شكرًا. شكرًا أيُّها الأب. شكرًا جزيلًا". في كلِّ مرَّةٍ كان يحاولُ فيها أن يتكلَّم، كان يتلعثمُ وكانوا هم يشكرونه. أخيرًا اقتربَتْ منه الوالدةُ وقالت: "أيُّها الأب، لا تكن مكتئبًا على هذا النَّحو! ألا تعرفُ أنَّ الربَّ يحبُّنا؟ هَهُنا ولداي وعمَّتي وعمِّي. تعالَ وتناوَلِ الطعامَ معنا، تعالَ إلى منزلنا. إنَّنا نستطيعُ أن نحتملَ ألم فقدان طوني لأنَّ الله معنا".

ويسردُ القصَّةَ الثانية كريستيان ويمان (Christian Wiman)[٢١]، وهو شاعرٌ نشأ في عائلةٍ متديِّنةٍ في تكساس. ضلَّ طريقَ الإيمان، ودرَّس في الجامعات، وسافرَ حول العالم، ثمَّ استقرَّ بوصفه محرِّرًا لمجلَّة پوِتري (Poetry)، وهي أقدم مجلَّةٍ أميركيَّة للشِّعر. في سنِّ التاسعة والثلاثين، بينما كان حديثَ الزواج، شُخِّصَتْ إصابتُه بنَوعٍ نادرٍ من سرطان الدم الذي لا يمكنُ علاجه، ممَّا جعلَه يُجري عمليَّةَ بحثٍ طبِّيَّةً مؤلمةً ويُحفِّزه ليُجريَ بحثًا لا يهدأ عن الإيمان المتجدِّد. إنَّ تأمُّلاتِه الجديرةَ بالملاحظة، "هاوِيَتي السَّاطعة" (My Bright Abyss)، تصفُ بحثَه عن الإيمان المتجدِّد:

أنا مسيحيٌّ بسبب تلك اللحظة على الصليب عندما صرخ يسوع وهو يتجرَّعُ حتَّى الثُّمالة المرارةَ البشريَّة، إلهي إلهي، لماذا تركتني؟ (أعلمُ ذلك، أعلمُ ذلك: كان يقتبسُ من المزامير. ومَن الذي يقتبسُ قصيدةً عندما يتعرَّضُ للتَّعذيب؟ ليست الكلمات هي المقصودة. الفكرةُ المهمَّة هي أنَّه شَعرَ بالفَقْر البشريِّ في درجَتِه المطلَقة- الفكرةُ المهمَّة هي أنَّ الله معنا، وليس أبعد منَّا في المعاناة). أنا مسيحيٌّ؛ لأنَّني أفهَمُ تلك اللحظةَ من آلام السيِّد المسيح ليكونَ لها معنى في حياتي، وما تعنيه هو أنَّ الطبيعةَ الفرديَّةَ والفريدةَ بصورةٍ مُطلَقةٍ للألم البشريِّ المُفرط هي وَهْم. أنا لا أقترح أنَّ الملائكةَ التي خدَمَت السيِّدَ المسيحَ ستنزلُ وتعزِّيك عندما تموت. أنا أقترحُ أنَّ معاناةَ يسوعَ وآلامَه تحطِّم الجدرانَ الحديديَّة حول المعاناة البشريَّة الفرديَّة، أيْ أنَّ رأفةَ السيِّد المسيح تجعَلُ رأفةَ الإنسان المفرطة- حتَّى إلى درجة الموت- أمرًا ممكنًا. يمكنُ لمحبَّة الإنسان عندئذٍ أن تَصِلَ مباشرةً إلى الموت، لكنْ ليس إذا كانَتْ مجرَّدَ حبٍّ إنسانيّ.

يقولُ ويمان إنَّ هذا الإدراكَ يخفِّفُ الشعورَ بالوَحدة. في العالم الحديث الذي يفترضُ غيابَ الله، أو عدم اهتمامه، "المسيحُ هو الله الذي يصرخُ أنا هنا". بسبب يسوع، لدينا التَّأكيد على أنَّ كلَّ ما يزعجُنا، يزعجُ الله أكثر. مهما كان الحزنُ الذي نشعرُ به، يشعرُ الله بحزنٍ أكبرَ منه. ومهما كان ما نتوق إليه، يتوقُ الله إلى ما هو أكثر منه.

بصيص الأمل

لكي ندركَ تمامًا ما تساهمُ به حياةُ يسوعَ بالنِّسبة إلى الأسئلة التي تُثيرُها المعاناة، ما عليَّ إلّا أن أبحثَ في مكانٍ آخر. بطريقةٍ أو بأخرى، يجبُ على كلِّ فلسفةٍ أو دينٍ أن يتقبَّلَ المعاناةَ في سياقِها الخاصّ، ومن خلال زياراتي إلى أمكنةٍ مثل اليابان والهند والشرق الأوسط، رأيتُ مُقارَباتٍ أُخرى.

تُقرُّ البوذيَّة بكلِّ صراحةٍ أنَّ "الحياةَ معاناة"، وتقدِّمُ النُّصحَ بشأن كيفيَّةِ قبولها عن طِيبِ خاطِر. وعبر تعلُّم العَيشِ دون رغباتٍ أو خوف، تُعلِّمُنا أنَّ في وُسعِنا أن نُجرِّدَ المعاناةَ من قوَّتها ونَجِدَ السلامَ الداخليّ.

يوصي الإسلامُ بالخُضوع إلى كلِّ ما يحدُثُ حاسبين إيَّاه قضاءً وقدَرًا. يقولُ لي الأطبَّاءُ في الدُّوَل الإسلاميَّة إنَّ الأهاليَ نادرًا ما يحتَجُّون عندما يموتُ أطفالهم- أجل هم يحزنون، لكنَّهم لا يحتَجُّون. ويتذكَّرُ أحَدُ المُرسَلين في بنغلادش ردودَ فعلِ السكَّان المحليِّين تُجاهَ أسوأ كارثةٍ طبيعيَّةٍ في القرن العشرين- تلك الفيضانات الهائلة في عام ١٩٧٠م والتي أودَتْ بحياةِ نصف مليون شخص. قال: "بالتَّأكيد، كان الناسُ مصدومين ومذهولين. ومع ذلك لم أجِدْ إلّا القليلَ من الارتباك والحَيرة. قلائلُ الذين كانوا يتَساءلون: «لماذا؟». قَبِلوا الكارثةَ الطبيعيَّةَ بوصفها مشيئة الله".

تذهبُ الهندوسيَّةُ إلى أبعدَ من ذلك، وتُعلِّم أنَّنا نستحقُّ المعاناة التي تُصيبُنا؛ فهي عاقبة الخطايا التي ارتُكِبَت في حياةٍ سابقة. توضحُ الأسفارُ الهندوسيَّة القديمة المعروفة بِاسْم "ڤيداس" (Vedas) قانونَ كارما (تصرُّفات الإنسان الكلِّيَّة) كما يلي: "إنَّ الذين كان سلوكهم جيِّدًا هنا سينالون سريعًا ولادةً جيِّدة: ولادة براهميّ (Brahman)، أو ولادة محارب، أو ولادة تاجر.

لكنْ مَن كان سلوكُهم سيِّئًا هنا، فسينالون سريعًا ولادةً سيِّئة: ولادة كلبٍ، أو ولادة خنزيرٍ، أو ولادة منبوذ (في طبقة المنبوذين)".

أمَّا بالنِّسبة إلى الحكومات العَلمانيَّة، فإنَّها تتجاوَبُ مع المعاناة بمحاوَلاتٍ شجاعةٍ للقَضاء عليها. يعملُ موظَّفو الصحَّة على استئصال مرضِ الجُدَريِّ ومعظم التهاباتِ شَلَلِ الأطفال ويخطون خطواتٍ واسعةً ضدَّ الملاريا (الحمَّى الصفراء)- فقط ليواجِهوا أعداء جُددًا مثل نقص المناعة المكتسبة (الايدز)، وإنفلونزا الطيور، والبكتيريا آكلة اللَّحم. يبني المهندسون الجسورَ حول نيو أورليانز وجدارًا بحريًّا على طول شاطئ اليابان، ثمَّ يشاهدون قوى غير مسبوقةٍ تسحقُهم. انخفضَتْ حدَّةُ الحرب العراقيَّة، والعنفُ في أفغانستان يضطرم، تتبعُه تونُس وليبيا ومِصر وسورية واليمن ومالي والسودان. ويحدُثُ إطلاقُ نارٍ في كولومبين (Columbine)، وجامعة فيرجينيا التكنولوجيَّة، وأورورا (Aurora) ونيوتاون (Newtown)- هل نستطيعُ يومًا أن نوقفَ هذه المآسي؟ تنفجرُ قنبلةُ إرهابيٍّ في العراق، وإنكلترا، وإسبانيا، وأفغانستان، وبوسطن، وباكستان... إنَّ جهودَنا الحسنةَ النيَّةِ لحلِّ المشكلات تنتهي بأنْ تُشبِهَ لعبةَ "Whac-A-Mole"*** في الكرنڤالات الصيفيَّة.

إنَّ للإيمان المسيحيِّ المبنيِّ على أُسُسِ العهد القديم، وجهةَ نظرٍ تختلفُ بعضَ الشيء في المعنى بحيثُ تبدو مُتناقِضةً. فهو من ناحيةٍ يُشجِّعُ الاحتجاج، حتَّى إلى درجةِ تقديمِ الكلمات التي تُستخدمُ في هذا الإطار. من ناحيةٍ أخرى، كما ذكرت، يُضيء بصيص أمل مُتَحدٍّ فقراتِ الاحتجاج في الكتاب المقدَّس. يبني أتباعُ يسوع تأكيدَهم على الإيمان الراسخ بأنَّ الله سيَشفي يومًا

*** لعبة يسعى فيها اللاعبون إلى ضرب المناجذ (حيوانات الخلد) وإجبارها على العودة إلى أنفاقها قبل أن تسبِّبَ المشكلات (الناشر).

ما الكوكبَ من الألم والموت. إلى أن يحينَ ذلك اليوم، فإنَّ القضيَّةَ ضدَّ الله يجب أن تعتمدَ على أدلَّةٍ غير كاملة. لا نستطيعُ حقيقةً التوفيق ما بين عالمنا الذي يعصفُ به الألم وإلهٍ مُحِبّ؛ لأنَّ ما نعانيه الآن ليس هو ما يقصدُه الله. صلَّى يسوعُ نفسُه إلى الله قائلًا: "لتكُنْ مشيئتُكَ كما في السماء كذلك على الأرض"[٢٢]، وهي صلاةٌ لن تُستجابَ بشكلٍ كاملٍ إلى أن ينهزمَ الشرُّ والمعاناة في النهاية.

أجرى إي. ستانلي جونز (E. Stanley Jones)[٢٣]، وهو مرسَلٌ ميثوديٌّ معروف إلى الهند في القرن الماضي، دراسةً استغرقَتْ كلَّ حياتِه عن الفلسفة الشرقيَّة، وأجرى عدَّة أحاديثَ بشأن المعاناة مع صديقه المهاتما غاندي (Mahatma Ghandi). أُعجب جونز بقبول الهنود الهادئ للمعاناة، غير أنَّ لمعتقداتهم تفسيرًا منطقيًّا لوُجودها. لاحظَ جونز أنَّ "الهندوسيَّةَ والبوذيَّةَ تفسِّران كلَّ شيء، وتتركان كلَّ شيء كما كان"، في حين تفسِّرُ النظرةُ المسيحيَّةُ القليلَ وتغيِّرُ كلَّ شيء. وخَلصَ إلى القَول إنَّ "الله يريدُ أن يشفيَ جميعَ الأمراض"، إمَّا عبر الجراحة والمعالجة الطبِّيَّة، وإمَّا عبر الممارسات الصحِّيَّة، أو بحدوثِ معجزة، كما أنَّ هناك أمراضًا أُخرى عليها أن تنتظرَ الشفاءَ النهائيَّ في القيامة. غير أنَّه في كلِّ حالةٍ من الحالات، يمكنُ لله أن يستخدمَ المعاناةَ نفسَها استخدامًا جيِّدًا: "لا يوجَدُ ألمٌ أو معاناةٌ أو خَيبةُ أملٍ أو إحباطٌ لا يمكنُ شفاؤه أو معالجته أو استخدامه لغاياتٍ أسمى".

رُغمَ ما يدَّعيه بعضُ معلِّمي لاهوتِ الازدهار، لا يقدِّم الكتابُ المقدَّس أيَّة ضمانةٍ تقولُ إنَّ المعاناةَ ستَزول؛ فكلُّ ما يقولُه هو إنَّها ستُفتَدى- أو لاستخدام كلمة أكثر حداثةً، سيُعاد تَدويرُها. أنا آخذُ علبَ الألمنيوم المستعمَلة المسطَّحة إلى مركَز إعادة التدوير على أملِ أن يجعلَ شخصٌ ما منها شيئًا مفيدًا. وأُحضِرُ حاسوبًا عتيقَ الطراز إلى الفنِّيِّ عالمًا أنَّه سيُزيلُ مقدارَ الذهب الضئيلَ فيه

والموادُ النادرة الأخرى و"يُعيد تَدويرها". في صورةٍ موازية، يمكنُ إعادةُ تدويرِ المعاناة بوصفها مساهمةً في إثراءِ الحياة.

رأيتُ أدلّةً كثيرةً على فائدةِ المعاناة. مثلًا، كتبَ الممثّلُ اليهوديُّ مايكل جاي. فوكس (Michael J. Fox)[٢٤] أنّ السنواتِ الصعبةَ التي أمضاها في قبولِ مرض الشلل الرعاشيِّ أو باركنسون (Parkinson) قد تَبيَّن أنّها "أفضل عشر سنوات من حياتي- ليس رُغمَ مرضي، بل بسببه". أرغمَتْه معاناتُه على التحوُّل من شخصٍ طموحٍ ومُحفّز، إلى شخصٍ أكثرَ ميلًا إلى التأمُّل وتفهُّم الآخرين. "لو سارعْتَ إلى هذه الغرفة الآن وأعلَنتَ أنّك أبرمْتَ اتّفاقًا... تزولُ بموجبه بصورةٍ سحريّةٍ السنوات العشر التي مضَتْ على تشخيصِ مرضي، وتُستَبدَل بها عشر سنوات إضافيّة أعودُ فيها كما كنتُ من قبل- فإنّي، دونَ أيِّ تردُّد، أطلبُ منك أن تغادرَ فورًا... لا أريد البتّة أن أعودَ إلى تلك الحياة- وُجودٌ محميٌّ ضيِّقٌ يغذّيه الخوفُ، وتجعلُه العزلةُ والانفرادُ والانغماس في اللذّات صالحًا للعَيش".

افتداء الألم

تركِّزُ نظرةُ المسيحيّة إلى المعاناة على كلمةِ "افتدائيّ". رُغمَ أنّ الألم في حدِّ ذاته قد يكون سببًا للاحتجاج الغاضب، فإنّه قد يُسهمُ أيضًا في الحياة- بعبارةٍ أخرى، يمكن افتداؤه. إنّي أقاومُ الذين يفترضون أنّ الله يرسلُ المعاناةَ لتَحقيقِ الخير. كلّا، لم أجِدْ في الأناجيل يسوعَ يقولُ للمتألّم: "إنّ سببَ معاناتك من نزيفِ الدّم (أو الشلل أو البرص) هو أنّ الله يعملُ على بناء شخصيّتك". لم يُلقِ يسوعُ محاضرةً على أشخاصٍ كهؤلاء، لكنّه شفاهم. مع ذلك، كلُّ فقرةٍ

تقريبًا في الكتاب المقدَّس تتحدَّثُ بشأن المعاناة، تستكشفُ كيف يمكنُ لشيءٍ "سيِّئٍ" حتَّى أن يُفتَدى من أجل الخير.

عندما كتبَ بولسُ ويعقوبُ وبطرسُ إلى المؤمنين الذين كانوا يتعرَّضون ظُلمًا إلى الاضطهاد لأجل إيمانِهم، شدَّدوا جميعُهم على قيمةِ المعاناة التي يمكنُ استبدالُها. مثلًا، قالَ بولس لأهل رومية: "بل نفتَخرُ أيضًا في الضِّيقات عالمين أنَّ الضِّيقَ يُنشئ صبرًا، والصبرَ تزكيةً، والتزكيةَ رجاءً"[٢٥].

شبَّه الرسولُ بولس إنجازاتِه التي حقَّقها جاهِدًا بكومةٍ من الرَّوث، لكنْ حتَّى هذه يمكن إعادة تدويرها لتكونَ سمادًا طبيعيًّا. إنَّ معاناة مارتن لوثر كِنغ الابن (Martin Luther King Jr.) ونلسون مانديلا (Nelson Mandela) وسولجنيتسين (Solzhenitsyn) وآلامَهم كلَّها استُبدِلَت بها طرقٌ ما كان في وُسعهم في ذلك الوقت تَخيُّلها. وعلامة التاريخ المميَّزة، تنفيذ الإعدام بابن الله، يتذكَّرُها الكثير من المسيحيِّين بوصفها الجمعة العظيمة، وليس المظلمة أو المأساويَّة. قال يسوع إنَّه كان في وُسعه أن يدعوَ جيشًا من الملائكة ليمنعَ صلبَه. لكنَّه لم يفعَلْ. إنَّ طريقَ الفداء تمرُّ عبرَ الألم وليس حوله.

بعد عدَّة أسابيعَ على عَودتي من سراييفو، اخترتُ كتابَين أحَدُهما جديدٌ والآخر قديم، كتبهما صديقي جيري سيتسر (Jerry Sittser)، وهو أستاذٌ جامعيٌّ في كلِّيَّة ويتوورث (Whitworth)، يَروي فيهما قصَّتَه الشخصيَّةَ الطويلةَ والمفصَّلة عن المعاناة التي يمكنُ استبدالُها. قبل عشرين عامًا كان جيري يقودُ عائلتَه في حافلةٍ صغيرةٍ في ريف ولاية أيداهو (Idaho) عندما فوَّتَ أحَدَ المنحنياتِ سائقٌ مخمورٌ يقود سيَّارته بسرعة ١٢٠كم/الساعة تقريبًا، فعبَرَت سيَّارتُه المسارَ وصدمَتْ مقدِّمة سيَّارة سيتسر. في الدقائق القليلة التالية؛ وعلى الرُّغم من

محاولاته اليائسةِ لإنعاشهم، شاهدَ جيري زوجتَه ووالدتَه وابنتَه ذات الأربع سنوات يمتْنَ أمام عينَيه. فقدَ ثلاثةَ أجيالٍ على الفور، وأُصيبَ أولادُه الثلاثةُ الناجون بإصاباتٍ بالغة.

كتبَ جيري عن تلك الصدمة البالغة في كتابه الأوّل، "نعمةٌ متنكِّرة" (A Grace Disguised)[٢٦]، الذي ساعدَ كثيرين على التّعامُل بنَجاحٍ مع حُزنهم وخسارتهم. روى في الكتاب تفاصيلَ مراحلِ الحُزنِ وصعوبات التعامُلِ بنَجاحٍ مع الحياة بوصفه أبًا أرملًا في الوقت الذي يُديرُ فيه عملَه بدَوامٍ كامل. يكتب: "أذكرُ كيف كنتُ أغرقُ في مقعدي المفضَّل ليلةً بعدَ أُخرى، أشعرُ بالإرهاق والكَرْب حتّى إنّي كنتُ أتساءلُ عمّا إذا كنتُ سأبقى حيًّا ليَوم آخرَ. شعرتُ بأنّي مُعاقَبٌ لمجرَّد أنّي حيّ، واعتقدتُ أنّ الموتَ سيجلبُ لي راحةً مُرحَّبًا بها".

واجَهَ جيري لحظةً مفصليّةً في حياته. لاحَ المستقبل مثل عالمٍ مجهولٍ واسعٍ ومخيف. "لقد غيَّرتِ الخسارةُ الناتجةُ عن الحادث حياتي، ووضعَتْني على مسارٍ نحو الأسفل كان عليّ أن أنطلقَ عليه سواءٌ أردْتُ ذلك أم لا. أُلقِيَ على كاهلي عبءٌ هائلٌ وتحدٍّ رهيبٌ معًا. واجهْتُ اختبارَ حياتي. انتهَتْ مرحلةٌ أولى من حياتي، وكانت المرحلةُ الأخرى الأصعبُ على وشك أن تبدأ".

بعد عشرين عامًا، كتبَ جيري كتابًا تاليًا للأوّل بعنوان: "نعمة تتكشّف" (A Grace Revealed)[٢٧]، يروي فيه ما حدثَ منذُ ذلك الوقت: المساعدة العمليّة التي حصلَ عليها من الطلبة وأفراد مجتمع الكلّيّة الآخرين، تجاربُ تنشئةِ أولادٍ دون أمّ، وفي نهاية المطاف، التحدّياتُ الجديدةُ للزّواج الثاني والعائلة المختَلَطة. إنّ كلَّ كلمةٍ يذكرُها بولس- الصبر، التزكية، الرجاء- تلعبُ دورًا في قصّةِ سيتسر، ويركّزُ الجزءُ الأوّلُ من الكتاب على كلمة الفداء.

إنَّ كلَّ كلمةٍ إنكليزيَّة تبدأ بالبادئة "-Re"، كما يلاحظ سيتسر، تعودُ إلى حالةٍ أصليَّةٍ في الماضي. إنَّنا نُصلح (Re-hab) بيتًا قديمًا، نستأنف (Re-sume) الدروسَ بعدَ عطلةِ الشتاء، نعيدُ تنظيمَ (Re-organize) المكتب، نُعيد اكتشاف (Re-discover) متعةَ التزلُّج. إنَّ كلمة "يفدي" (Re-deem) تضيفُ بُعدًا جديدًا بالإشارة إلى الأمام إلى المستقبل. العبدُ المُفتَدى يتحرَّرُ إلى حياةٍ جديدة؛ والخاطئ المُفتدى يدخلُ حالةً جديدةً من النعمة. لكنْ يضيفُ جيري أيضًا أنَّ الفداءَ يتضمَّنُ دائمًا ثمنًا لافتداء عبدٍ ما. يجب أن يَدفعَ شخصٌ آخرُ ثمنًا، أو في حالة الحرب الأهليَّة في الولايات المتَّحدة، كان على الأمَّة بأكملها أن تدفعَ الثَّمن. ولافتداء الكَوكَب، يجب أن يموتَ شخصٌ ما.

أودُّ أن أقترحَ حقيقةً أُخرى عن الفداء: حتَّى في الحالة الجديدة، تبقى هناك ندوب. العبدُ المفتَدى يحملُ ندوبًا، بالمعنى الحرفيِّ، على أطرافه وظهره من الأغلال والضَّرب. ومُدمِن الخمر المفتَدى يحملُ نُدوبًا في كَبِده. والمعاناة المفتداة تحمل نُدوبًا أيضًا: الحادثة وما تَلاها لن تُمحى بتاتًا من ذاكرةِ جيري وأولاده. الناجون من التسونامي وضحايا الحرب في سراييڤو ومجتمع نيوتاون- قد يَجِدون طُرُقًا لاحتمال المعاناة، حتَّى لتَحمُّلها، لكنَّ الذكريات المؤلمة لن تختفيَ بتاتًا، ولا ينبغي أن تختفي. حتَّى جسدُ يسوعَ المُقام من الموت احتفظَ بعلاماته.

في الفصل الأخير من كتاب "**نعمة تتكشَّف**"، يعترفُ جيري أنَّه لا يستطيعُ إنهاءَ الكتاب بتَقريرٍ مُفرحٍ- بترتيبٍ وتنظيم كقصص الأطفال- بأنَّه بعدَ بعضِ الوقت عاشا "بسعادةٍ دائمة".

في نهاية المطاف، سنعيشُ بسعادةٍ دائمة، لكنْ فقط عندما تنتهي قصَّة الفداء، التي يبدو أنَّها ستَستغرقُ وقتًا طويلًا. في

الوقت الحاضر، أنت وأنا موجودان في مكانٍ ما في منتصف القصَّة، كما لو أنَّنا عَلِقْنا في فَوضى وعدمِ ترتيبِ مَشروع تحسينِ بيتٍ ما لم ينتَهِ نصفُه. قد يكونُ لدينا فصلٌ واحدٌ باقٍ في قصَّتنا، أو قد يكون لدينا خمسون. في وُسعِنا أن نختبرَ المزيدَ من الشيء نفسِه للسَّنوات المقبلة، أو قد نكون على حافَة تغييرٍ جذريٍّ ومفاجئ بحيث إنَّنا لو كنَّا نعرفُ ماهيَّتَه لأُغمِيَ علينا من الخوف والعجب، أو ربَّما من كلَيهما. ويمكنُ أن ندخُلَ إلى أسعَدِ مرحلةٍ في حياتِنا أو أتعَسِها. إنَّنا بكلِّ بساطةٍ لا نعرفُ، ولا نستطيع أن نعرفَ. هناك في رأيي خِيارٌ جيِّدٌ واحدٌ فقط: يجب علينا أن نختارَ البقاءَ في قصَّةِ الفداء. ومهما كانت غير واضحةٍ بالنِّسبة إلينا، يمكنُنا الوُثوقُ بأنَّ الله هو الذي يكتبُ القصَّة...

مجالٌ للنمو

يحتوي كتابُ الراحل دالاس ويلارد (Dallas Willard)[٢٨] "الخُطَّة الإلهيَّة" *(The Divine Conspiracy)* على هذه الكلمات الموجودة طيَّ جملة ثانويَّة: "ما من شيءٍ لا يمكن استبداله قد حدث لنا، أو يمكن أن يحدُثَ لنا، ونحن في طريقنا إلى مصيرنا في عالم الله الكامل". بالنِّسبة إليَّ، تلخِّصُ تلك العبارةُ المخطَّط العظيمَ للتَّاريخ الكَونيِّ المذكور في رومية ٨. يسأل بولس بأسلوبٍ خطابيٍّ بينما يعدِّدُ التجاربَ التي واجَهَها بوصفه مُرسَلًا مُرهَقًا: "مَن سيفصلُنا عن محبَّة المسيح؟ أشدَّة أم ضيقٌ أم اضطهادٌ أم جوعٌ أم عريٌ أم

خطرٌ أم سيفٌ؟"[٢٩] كلَّا، لأنَّنا "ونحن نعلم أنَّ كلَّ الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبُّون الله الذين هم مدعوُّون حسب قصده" و"الذي لم يُشفِقْ على ابنه، بل بذلَه لأجلنا أجمعين. كيف لا يهبُنا أيضًا معه كلَّ شيءٍ؟".

الكتابُ المقدَّس بأكمله هو قصَّة فداء: حصول آدم على فرصةٍ ثانية، بالإضافة إلى ابنه القاتل قايين؛ البركات الممنوحة لإبراهيم ويعقوب وأمثالهما رغم هفواتهم وأكاذيبهم؛ انتصارات يوسف ودانيال بعد إلقائهما في السجن ظُلمًا؛ موسى العنيد وداوُد الشهوانيّ وإرميا المتذمِّر؛ وتشكيلة متنوِّعة من القتلة والزناة والملوك الفاسدين التي توجَدُ أسماؤهم في ثنايا سِجِلِّ متَّى عن أسلاف يسوع؛ ويسوع نفسه مضحِّيًا بحياته من أجل الآخرين. وكما عبَّرَتْ عن ذلك الكاتبة مارلين روبنسون (Marilynne Robinson)[٣٠] بالقَول: "إنَّ الموضوعَ الكبيرَ المتكرِّرَ في قصَّة الكتاب المقدَّس بأكملها هو دائمًا الإنقاذ، سواء كان إنقاذ نوح وعائلته أم الشعب العبرانيّ، أم الذين افتداهم يسوع. إنَّ فكرةَ وُجودِ بقيَّةٍ أعظمَ قيمةٍ من أن تضيع، والتي فيها ستحيا البشريَّة بطريقةٍ أو بأُخرى، كانت ولا تزال رجاءً سخيًّا ونابعًا من الورع".

"لا يمكن أن يحدُثَ لنا شيءٌ لا يمكن افتداؤه"- شاهدتُ دليلًا على هذا في سراييڤو التي دمَّرتها الحرب. نزلتُ في دَيرٍ لحقَتْ به الأضرار بفِعْل إصابته باثنتَين وأربعين قذيفةً مدفعيَّة، لكنَّ الأب ماركوڤيتش وزملاءَه الرهبان أصلَحوه بكلِّ محبَّة. وبينما هربَ معظمُ المسيحيِّين من المدينة تاركين إيَّاها للمسلمين، ظلَّتْ رهبنةُ الفرنسيسكان فيها. وهم يقدِّمون وجبات الطعام إلى الفقراء، ويساعدون مَن هم دون مأوى، ويقودون حركةَ السلام الهشَّة. خلال أمسيَّتي الأولى هناك، حضرتُ حفلًا موسيقيًّا وتجمُّعًا متعدِّدَ الأديان، من يهودٍ (بقيَ في سراييڤو بضعُ مئات) ومسلمين، على شرف القدِّيس فرنسيس. مع

ذلك، كان هو الذي عبرَ خطوطَ العدوّ ليقابلَ الفاتحين المسلمين في محاوَلةٍ لوَقفِ الحروب الصليبيَّة.

في مساء اليوم التالي، تكلَّمتُ في الكنيسة الخمسينيَّة. أخبرني راعي الكنيسة بلَيلةِ النَّفسِ المظلمة التي شعرَ خلالها بخَيبة أملٍ عميقةٍ تُجاه الله. وسطَ الحصار والقَصْف، شُخِّصَتْ إصابتُه بالسَّرطان، وبعد فترةٍ قصيرة وَلَدَتْ زوجتُه طفلًا مصابًا بالشَّلل الدِّماغيِّ. قرَّرَ هو أيضًا أن يبقى في المدينة المحاصرة. استمرَّ عددُ المصلِّين يتزايدُ في كنيسته؛ لأنَّه لم يكُنْ أحَدٌ يعرفُ مكانًا آخرَ يذهبُ إليه. قال لي: "عندما يبدو الله غائبًا، فإنَّ الأمر في بعض الأحيان يكونُ متروكًا لنا لإظهار وُجوده". في أغلب الأحيان، لا يعرفُ العالم حقيقةَ عمَّانوئيل، الله معنا، إلَّا من خلال أتباعه.

نريدُ الهربَ من المعاناة بوصفه ردَّ فعلٍ طبيعيًّا لدينا. لكنْ في مرحلةٍ ما، سنواجهُ صعوبةً لا يسهلُ الهروبُ منها، "المعاناة التي لا يمكنُ تجنُّبها" كالتي واجهَها ڤيكتور فرانكل في معسكر الاعتقال، وكصمود سراييڤو إبَّان الحصار. إنَّ أتباعَ يسوع لم يكونوا مُستثنَين من مآسي الشرِّ والموت، تمامًا مثلما كان يسوع. بدلًا من ذلك، قد تصيرُ التجاربُ مناسباتٍ لعمل النعمة عبر إيقاظِ مخزونِ الشجاعة والمحبَّة والرأفة الكامن والذي لم نكن ربَّما نعلمُ بِوُجوده.

ساعدَ جون أورتبرغ (John Ortberg)[٣١] يومًا على إجراء مَسحٍ عن التنشئة الروحيَّة. سُئِلَ في المسح آلافُ الأشخاص عن الوقت الذي صار فيه نموُّهم الروحيُّ قويًّا، وعن الأمر الذي ساهمَ في ذلك النموّ. أدهشَه العاملُ المساهم الأوّل. لم يكُنِ التعليمَ الرعويَّ ولا شَرِكةَ المجموعة الصغيرة ولا خدماتِ العبادة أو كتبَ اللَّاهوت، بل ذكرَ الأشخاصُ أنّه المعاناة. "قال الناس إنَّهم

نموا خلال فترات الخسارة والألم والأزمات بصورةٍ أكبرَ من نموّهم في أيِّ وقتٍ آخر". إنّنا لا نكتشفُ قيمةَ المعاناة الخفيّة إلّا عبر المعاناة- ليس بوَصْفها جزءًا من خُطّةِ الله الأصليّة أوِ النهائيّة لنا، بل بوصفها تحوُّلًا افتدائيًّا في خِضَمِّ المحنة.

قادت الكاتبة پاولا دارسي (Paula D'Arcy)[٣٢]- التي فقدَتْ زَوجَها وابنتَها البالغةَ أحَدَ عشرَ شهرًا في حادثة سيَّارةٍ تسبَّبَ فيها سائقٌ مخمور- مجموعاتِ حُزنٍ بعدَ كوارثَ كُبرى مثل إعصار كاترينا. تقولُ عند التأمُّل في حزنها الخاصّ: "أدركتُ أنّ هناك مستَوَيَين للحياة. المستوى الأوّل هو قصّةُ حياتكَ الصغيرة، والمستوى الآخر هو هذه الحركة من روح الله التي تحاولُ المساعدةَ على إيقاظ نفوسنا لتَجِدَ قوّةً أعظمَ من أيِّ شيءٍ يمكنُ أن يحدُثَ لنا في أيِّ وقتٍ من الأوقات. كان الحزنُ هو الثغرة التي وجدتُ من خلالها تلك القوّة. من نواحٍ كثيرة، كان هذا الانسحاقُ الذي تلاه الانفتاحُ في مثل هذه السنّ الباكرة عطيّةً كُبرى لأنّه أعطاني بقيّةَ حياتي للاستفادة ممّا تعلّمتُه... مهما كان ما سيَحدُثُ لي، سأجدُ قوّةً في داخلي أعظمُ من الظُّلمة الخارجيّة".

النموُّ من خلال المعاناة ليس بالتّأكيد أمرًا تلقائيًّا. دون دَعمِ المجتمع والمحبّة الحكيمة، يمكن أن تؤدّيَ المعاناة إلى الانعزال واليأس. غير أنّي بصفتي صحافيًّا رأيتُ قدرتَها التحويليّة وهي تعملُ في أمكنةٍ عديدة: بين مرضى البرص في الهند؛ بين رعاة كنائس مسجونين في الصين ومياغار (Myanmar)؛ بين المسنّين في شيكاغو؛ بين مراكز رعاية المحتَضَرين في كولورادو؛ بين أصدقاء ومعارف يحاربون مرض السرطان، وغير ذلك من الأوضاع الأُخرى التي تهدّدُ الحياة.

تعاقبَ زائرون حسنو النيَّة على غرفةِ امرأةٍ اسكتلنديَّة تُدعى مارغريت (Margaret)[٣٣] مصابةٌ بسرطان الحلق، وقدَّموا إليها تعليقاتٍ متعاطفة. ولأنَّها وجدَتْ صعوبةً في الكلام، كتبَتْ هذه الكلمات على قصاصة ورق: "هذا ليس أسوأَ شيءٍ يمكنُ أن يحدث! السرطانُ محدود جدًّا؛ فهو لا يستطيعُ أن يُشِلَّ المحبَّة أو يُحطِّمَ الرجاء أو يُتلفَ الإيمان أو يُزيلَ السلامَ أو يدمِّرَ الثقةَ أو يقتلَ الصداقةَ أو يخفيَ الذكريات أو يُسكِتَ الشجاعةَ أو يُطفئَ الروحَ أو يُقلِّلَ من قوَّة يسوع".

ذهبَتْ إلى أبعد من ذلك صديقةٌ لي مصابةٌ بسرطانٍ في المرحلة الرابعة، حيث قارنَتْ تجربَتَها بالعلاج الكيماويِّ الذي كانت تتلقَّاه. كان تعرفُ أنَّ العلاجَ الكيماويَّ مصمَّمٌ لقَتْلِ الخلايا السرطانيَّة الخبيثة، لذلك سألَتِ الله أن يَستخدِمَ بصورةٍ مشابهة "تجربَتَها السامَّة المؤلمة لتدمير أيِّ شيءٍ أنانيٍّ ونجسٍ وتجويعه وقتله، وتدمير أيِّ شيءٍ يُسيء إليه في نفسي. إنِّي أستسلمُ راضيةً بعَمَلِه الجديد فيَّ مدركةً أنَّه اختارَ ما سيجلبُ في نهاية المطاف حياةً أفضلَ ممَّا كنتُ أتصوَّره". عندما قرأتُ هذه الكلمات وأنا مدركٌ الخرابَ الذي يُحدِثُه العلاج الكيماويّ، تعجَّبتُ من روحها.

وأيضًا مريضٌ آخرُ بالسُّرطان، صديقٌ لي من نيوزيلندا (New Zealand)، كتبَ في منتصف المعالجة الكيماويَّة:

> مع شكري مرَّةً أُخرى لصلواتكم ومرافقتكم لي في هذه الرحلة. أرجو أن تنسكبَ محبَّةُ الله في حياتكم بطرقٍ غير متوقَّعة في الأسابيع المقبلة. مرَّة ثانية، يمكنُ أن تكونَ تلك مجرَّدَ نهايةٍ وَرِعة، أليس كذلك؟ لكنَّ هذا هو الشيءُ المدهش الذي

عرفناه: أنَّ إله الأربع عشر بليون سنة منذ بداية الكَون- إلهَ التاريخ البشريِّ ما قبل التاريخ؛ إله السبعة مليارات إنسان على كوكبنا الذين يفرحون ويُعانون ويأمَلون ويتألَّمون- ومع كلِّ ذلك يُقابِلُنا شخصيًّا ويستمعُ إلى ما نقوله، وهو مهتمٌّ بمَن نحن عليه، وهو عاطفيٌّ جدًّا بشأن ما قد نصير عليه، يسيرُ جَنبًا إلى جنبٍ معنا في فرصِ الحياة وتحدِّياتها. هذا أمرٌ مستَحيلٌ وبعيدُ الاحتمال وحقيقيٌّ أيضًا.

قال مارتن لوثر (Martin Luther)[٢٤]: "المعاناة أفضلُ كتابٍ في مكتبتي". أشكُّ في أنّي أستطيعُ أن أنطقَ بجملةٍ حافلةٍ بالثِّقة كهذه. لكنْ بواسطةِ شهودٍ كثيرين، استنتجتُ أنَّ الألم المُفتَدى يؤثِّر فيَّ بعمقٍ أكثرَ من الألم الذي زال. نحن نهتمُّ بما ستصير عليه الأمور، لكنَّ الله يبدو أكثرَ اهتمامًا بما سنصيرُ نحن.

الجزء ٤

شفاءُ الشّرّ

كان آدم لانزا (Adam Lanza)[1] في سنّ الحادية والعشرين ويشعرُ بالوَحدة. كان يُقيم مع والدته في نيوتاون بعد أن قطعَ كلَّ اتّصالٍ بوالده وأخيه بعد سنة من طلاقِ والدَيه. في مرحلةٍ باكرة، ظهرَتْ على آدم علاماتِ متلازمة أسبرجر (Asperger)، وهو شكلٌ من أشكال التوَحُّد. وبعد السنة الأولى في مدرسة ساندي هوك الابتدائيّة، تنقّلَ ما بين المدارس العامّة والخاصّة، وتخلّلتْ ذلك فتراتٌ من الدراسة في البيت. ومع ذلك، كان أداؤه الأكاديميّ جيّدًا في المدرسة الثانويّة، وكذلك في الكلّيّة التي التحَقَ بها في سنّ السادسة عشرة وحصل على علامات "أ" و"ب" قبل أن يتركَ الكلّيّة بعدَ سنة.

في صباح ١٤ كانون الأوّل/ديسمبر ٢٠١٢م، جلبَ لانزا مسدّسَين وبندقيّةً نصفَ آليّةٍ من مجموعةِ بندقيّاتِ والدتِه الموضوعة في خِزانةٍ غير مُحكَمة الإغلاق، ووضعَ الذخيرةَ في حُجَيرة البندقيّة، ودخل غرفتَها حيثُ أطلقَ أربعَ رصاصاتٍ على وجهها بينما كانت مستلقِيةً في الفراش. ثمّ قادَ سيّارتَه إلى مدرسته الابتدائيّة القديمة، وفتحَ البابَ المُغلقَ بإطلاقِ النار، وبدأتْ حالةٌ من الهياج هزّتِ العالم.

كان من أوائل ضحاياه مديرُ المدرسة والطبيبُ النفسيُّ فيها اللذان انتفَضا من غرفة الاجتماعات عندما سمعا صَوتَ تحطُّم الزجاج والضَّجيج في الرّواق. تركَتْ أمينةُ سرِّ المدرسة اليَقِظة نظامَ الاتّصال الداخليِّ مفتوحًا، وهكذا سمِعَ المدرِّسون في جميع أنحاء المدرسة أصواتَ إطلاقِ النار المتفرِّقة بالإضافة إلى الصراخ، ممّا حدا بهم إلى المناداة قائلين: "الزموا أماكنكم"، وتمترسوا مع تلاميذهم خلف الأبواب مُحكَمة الإغلاق. مرَّ لانزا بجانب غرفة الصفِّ الأوّل الابتدائيّ، ودخلَ غرفةَ صفِّ لورين روسو (Lauren Rousseau)، وهي معلّمةٌ بديلةٌ عن معلّمة في إجازة أمومة. أطلقَ النار على روسو وتلاميذها الأربعة عشر، بالإضافة إلى معلّمةٍ كانت قد عُيِّنت قبل أسبوع فقط.

وجدَ رجالُ الشرطةِ في ذلك الصفِّ أربعةَ عشرَ جسدًا صغيرًا متجمّعين بعضهم حولَ بعضٍ وقد أُطلِقَتِ النارُ على كلٍّ منهم مرّتَين على الأقلّ، وتلقّى أحَدُهم ما يصلُ إلى إحدى عشرةَ طلقةً. سمعَ الضُّبَّاطُ الأنينَ الصادرَ من كومة الأجساد، وبعد أن أزاحوا عدّة أجساد، وجدوا طفلًا صغيرًا لا يزالُ حيًّا. مات ذلك الطفل في سيّارة الإسعاف في طريقه إلى المستشفى. بصورةٍ لا تُصدَّق، نَجَتْ طفلةٌ في السادسة من عمرها بالتَّظاهُر بأنّها ميّتة. غادرَتِ المدرسةَ وهي مغطّاةٌ من أعلى رأسها إلى أخمصِ قدمَيها بِدَمِ زملائها وزميلاتها. قالَتْ عندما انضمَّتْ أخيرًا إلى والدتها: "ماما، أنا بخير، لكنْ ماتَ كلُّ أصدقائي وصديقاتي".

في غرفة الصفِّ المجاورة، خبّأتِ المعلّمةُ ڤيكتوريا سوتو (Victoria Soto) عشرين طفلًا في خِزانة الحائط وخِزانةٍ أُخرى. حاولَتْ أن تُحوِّل انتباهَ مُطلِق النار بأنْ قالَتْ له إنَّ أطفالها كانوا في قاعة الاجتماعات في الطرف الآخر من المدرسة. ثمَّ فُتِحَ بابُ خِزانة الحائط، فركضَ بعضُ الأطفال الخائفين نحوها.

قتل لانزا ستّةً منهم، وعندما توقّف ليُعبّئ مِشطَ البندقيّة الآخر بالذّخيرة، هربَ ستّةٌ آخرون وهُرِعوا إلى الحديقة الأماميّة لمنزل طبيبٍ نفسيٍّ متقاعد على الطرف الآخر من الشارع. عُثِرَ على جسد سوتو فوق أجساد الأطفال الذين حاولَتْ حمايتَهم جنبًا إلى جنبٍ مع جسد معلّمةٍ أُخرى متخصّصة في التوَحُّد. كانت رسوماتُ الأطفال مُعلّقة على لوحةِ الإعلانات مع عناوين مثل "أحبُّ معلّمتي الآنسة سوتو".

اتّصلَ مدرِّسون آخرون برَقْم الطوارئ ٩١١ حالَما شَعَروا بوُجودِ مشكلة، ووصلَ رجالُ الشرطة في غضون عشر دقائقَ من الطلقة الأولى. كان رجالُ إنفاذ القانون مُدرَّبين تدريبًا جيّدًا، تعلّموا من الأخطاء السابقة، كما حدث عندما حاصر رجالُ الشرطة المدرسةَ الثانويّةَ في كولومبين وانتظروا أكثرَ ممّا يجب بينما تُوُفّيَ عددٌ أكبر من الطلبة. هذه المرّة، اندفعَ رجالُ الشرطة على الفور إلى الداخل مشهِرين بندقيّاتهم في تشكيلٍ شبيهٍ بالوَتَد. في هذا الوقت، كان لانزا قد استخدم ثلاثين مِشطًا كاملًا من بندقيّته طراز بوشماستر (Bushmaster)، مُطلِقًا ما مجموعُه ١٥٤ رصاصة، وعندما هاجمَه رجالُ الشرطة، بينما تدوّي صفّاراتُ الإنذار في الخارج، أطلَقَ المهاجمُ النارَ على نفسه.

بعد بِضْع دقائق، فتّشَ رجالُ الشرطة خِزانةَ غرفةِ سوتو وأصابَتْهم الدَّهشة لدى عثورهم على سبع أزواج من العيون تحدّق فيهم- الأطفال الذين أطاعوا وظلّوا في الخِزانة المظلِمةِ في حين دارَتْ حالةٌ من الفَوضى والصَّخَب من حولهم. وفي نهاية الممرّ، رفضَتْ معلّمةٌ مُرتاعةٌ أن تفتحَ بابَ غرفةِ صفِّها إلى أن دفعَ أحَدُ رجالِ الشرطة شارتَه من تحت الباب. فتَحَتِ البابَ لتَجِدَ خمسةَ عشر شرطيًّا من شرطة الولاية والعملاء الفدراليّين ببندقيّاتهم الآليّة.

كان هناك اثنتا عشرةَ فتاةً وثمانيةُ فتيان، تتراوح أعمارُهم جميعًا ما بين السادسة والسابعة، يستَلقون أمواتًا، بالإضافة إلى ستِّ معلِّمات. بعد أن أجرى رجالُ الشرطة تمشيطًا للمدرسة، رافَقوا الأطفالَ الأربع مئة الأحياء إلى الخارج، ووجُهوهم بِوَضع أيديهم على كتفَي الطفل الذي أمامهم وبإغماض أعيُنهم بينما يسيرون بجانب الجثث.

في أثناء ذلك، نبَّهتْ رسالةٌ هاتفيَّةٌ أولياءَ أمور تلاميذ ساندي هوك ليَذهَبوا إلى مركَزِ الإطفاء في الشارع الذي تقعُ فيه المدرسة. احتشدَ في المكان مئاتُ الآباء والأمَّهات الذين كانوا في حالةِ هياج، وانضمُّوا إلى أولادهم الناجين بالبُكاء والعناق. عندما غادرَتْ هذه العائلاتُ المكانَ إلى بيوتها والشعور بالراحة يغلبُ عليها، تراجعَ أهالي الأطفال العشرين الذين لم يخرُجوا من المدرسة، وهم قلقو البال، إلى مركَز المجتمع المحلِّيّ في انتظارٍ هو الأطوَلُ في حياتهم.

مدينةُ الحزن

كان محرِّرو الأخبار قدِ اختاروا فعلًا القصَّة الأولى في الأخبار لعام ٢٠١٢م، مع إعادة انتخاب الرئيس باراك أوباما (Barak Obama) وحصوله على أغلبيَّة في التصويت. لكنْ بعد مأساة كانون الأوَّل/ديسمبر في ساندي هوك، بدَتْ جميع الأخبار الأُخرى غيرَ مهمَّةٍ إلى حدٍّ ما. وللمرَّة الأولى في تاريخها، أعادَتْ وكالة الأسوشيتدپرس (Associated Press) الاختيارَ وسمَّتِ الحدثَ الأتعسَ خلال العام بوصفه أهمَّ الأحداث.

اعتقد بعضُ الأميركيِّين الذين أُصيبوا بشُعورٍ بالخَدَر من حالاتِ إطلاقِ نارٍ أُخرى- كولومبين، في كلِّيَّة ڤيرجينيا للتكنولوجيا، محاولة اغتيال عضو

الكونغرس غابي جيفوردز (Gabby Giffords)، مسرح أورورا- أنّهم تجاوَزوا مرحلةَ الشعور بالصَّدمة. طعنَتْ عمليّاتُ القتل في ساندي هوك روحَ الأمّةِ بطريقةٍ جديدةٍ أفظعَ. في كلّ ليلة، كنّا نسمعُ المزيدَ من التفاصيل عن أطفالٍ بوُجوهٍ يعلوها النَّمَشُ وابتساماتٌ عريضةٌ سخيفةٌ وعيونٌ هادئة تُطلُّ علينا من صور المجلّات وشاشات التلفاز، حتّى عندما كنّا نشاهدُ توابيتهم الصغيرة وهي تُنزَل إلى القبور. يسألُ الخبراءُ المثقّفون: ما الخطأ فينا؟ وأيُّ نوعٍ من المجتمعات هو مجتمعُنا ليوَلِّدَ أعمالَ عنفٍ كهذه؟

بعد بضعة أيّام، بينما كنتُ لا أزالُ أترنّحُ من سماع الأخبار، رنَّ جرسُ الهاتف. قال صَوتٌ بلهجةٍ إنكليزيّة مألوفة: "فيليپ، أنا كلايف كالڤر. لم أرَكَ منذ فترةٍ لكنّكَ تذكُرُ أنّنا عملْنا معًا على بعض الأحداث في المملكة المتّحدة".

"بالتأكيد أذكُرُ يا كلايف. ثمّ أكملْتَ أنتَ مسيرتَك لتَصيرَ على رأس منظّمةِ الإغاثةِ العالميّة، أليس كذلك؟"

"صحيح، وكالة الغوث التابعة للجمعيّة الوطنيّة للإنجيليّين. أمضيتُ بعضَ السنواتِ الجيّدة في موقعِكَ المفضّل القديم قُرب شيكاغو. ربّما لم تسمَعْ حتّى الآن، لكنْ بعد ذلك، صرتُ راعيًا لكنيسةٍ تُدعى كنيسة مجتمع وولنات هِل (Walnut Hill Community Church). إنّها تقعُ على بُعدِ نحو كيلومتر ونصف من حدود بلدةِ نيوتاون حيثُ أعيش".

تغيّر المزاجُ فجأةً. تابعَ قائلًا: "لهذا السبب أتّصلُ بك. أنا أعلَمُ أنّكَ شاركتَ في الفترة التي تَلَتْ مأساةَ كولومبين؛ وأنّك تحدّثتَ في كلّيّة ڤيرجينيا للتكنولوجيا بعدَ إطلاقِ النار هناك. إنّنا يا فيليپ أكبرُ كنيسةٍ في المنطقة، ونحن نشاركُ مشاركةً عميقةً في المأساة هنا. لدينا أهالٍ فَقَدوا أولادَهم. لقد كانت

لدينا جنازة، وهناك جنازةٌ أُخرى مُقرَّرة غدًا. إنَّ أحَدَ أوائل المستَجيبين الذين وصلوا إلى موقع المأساة، يحضرُ اجتماعاتِ كنيستنا، وكذلك بعضُ المعلّمين. إنَّهم جميعًا متألّمون، ونحن نرغبُ في عمل شيءٍ ما للمجتمع. أنا أعرفُ أنّها فترةُ عيدِ الميلاد، وأنا متأكّدٌ من أنَّ لديك خُططًا، لكنْ هل هناك إمكانيّةٌ أن تأتيَ وتتحدَّثَ بشأن السؤال الذي كتبتَ عنه منذ سنوات- أين الله عندما أتألّم؟"

عرفتُ أنَّ عليَّ أن أقبلَ رُغمَ عَدَمِ وُجودِ أيّةِ فكرةٍ لديَّ حول ما سأقولُه لمجتمع مضطَربٍ كهذا. مثل الآخرين، كنتُ أشعرُ بالعَجْز في أعقاب إطلاق النار. لَديَّ الآن فرصةٌ للمُساهمةِ بشيءٍ ما- رُغمَ أنّي لم أعرفْ ما هو. اتَّصلتُ بسرعةٍ بناشِري كُتُبي الذين وافقوا دون تردُّد على التبرُّع للمجتمع بعدَّةِ آلافِ نسخةٍ من كتابي "أين الله عندما أتألّم" "وما فائدة الله؟" (What Good is God?). بعدَ يَومٍ واحد، عندما اتَّصلَتِ الكنيسةُ بالخطوط الجوّيّة المتّحدة (United Airlines) للحصول على التذاكر، تنازلَتِ الخطوطُ الجوّيّة عن جميع الرسوم- هم أرادوا أيضًا أن يُسهِموا بشيءٍ ما نيابةً عن نيوتاون. بعد ذلك بعثتُ برسالةٍ إلكترونيّةٍ إلى مجموعةٍ من الأصدقاء المقرَّبين أطلبُ منهم فيها الصلاةَ من أجل أصعبِ مَهمَّةٍ للتحدُّث واجهتُها على الإطلاق.

في ٢٨ كانون الأوّل /ديسمبر، تمامًا بعدَ أسبوعَين من إطلاق النار، نزلتُ في مطار لاغوارديا (La Guardia)، وقابلتُ مضيفي. وبعد ساعتَين من قيادة السيّارة لمحتُ للمرّة الأولى نيوتاون. كان معلّقو التلفاز قد استَخدَموا كلمتي "هادئة" و"ريفيّة" لوَصْفِ المنطقة، وبالفعل كان المشهدُ يستحقُّ صورةً مطبوعة من شركة أيفز أند كورير (Ives and Currier). عندما خرَجْنا من الطريق السريع المزدحم، التفَّ الطريقُ بين بيوت المزارع ذات الطراز الفيكتوريّ المحاطةِ بسياجاتٍ من أوتادٍ بيضاء وخيولٍ تمرح في المراعي. وحتّى شوارع البلدة كانت

أسماؤها (في الإنكليزيّة) مرتبطةٌ بأمورٍ ريفيّة كالمراعي والجبال وجداول المياه مثل هيد أوف ميدو (Head of Meadow)، وتودي هِل (Toddy Hill)، وماونت بلزنت (Mt. Pleasant)، وديپ بروك (Deep Brook).

قبل عام ٢٠١٢م، كان لدى نيوتاون ادّعاءان للشُّهرة: مكانُ ولادة لعبة سكرابل (Scrabble)، وموطن لاعب رياضة العشاريّ بروس جينر (Bruce Jenner). كانت ساريةُ العلم تنتصبُ على تلٍّ في الشارع الرئيسيّ في وسط البلدة، وكان في وُسعي بسهولةٍ أن أتخيَّلَ المشهدَ في الرابع من تمُّوز/يوليو (عيد الاستقلال الأميركيّ) حيثُ تتنزَّه العائلاتُ في حديقة المدينة، وتشاركُ سيّاراتُ الإطفاء وطوّافاتٌ قديمةُ الطراز وفرقُ المدارس الموسيقيَّة في الاستعراض. يعودُ تاريخ ساندي هوك، إحدى القرى في بلدة نيوتاون، إلى عام ١٧١١م. هذه كانت أميركا التقليديَّة- أنموذجًا لبراءة بلدةٍ صغيرة.

لكنّها لم تَعُدْ كذلك. كان الثلجُ يتساقطُ وشكّلتِ السماءُ الرماديَّةُ والأشجارُ العارية خلفيَّةً أكثرَ ملاءمةً لما صارَ البلدةَ الأكثرَ تشبُّعًا بالحزن في أميركا. في بعض البيوت، استُبدِلَتْ بأكاليلِ عيد الميلاد المجيد أكاليلُ الحزن. وكان هناك راياتٌ سوداءُ تتدلّى من على الشرفات هنا وهناك، وفرسان الولاية يتجوّلون في دَوريّات على الدروب الخاصّة بين البيوت لحماية الأُسَرِ الحزينة من المتفرّجين على معالم المدينة ومن وسائل الإعلام. وغطّى الثلجُ الموحِلُ الآن المزاراتِ المؤقّتة المؤلّفة من الملائكة المصنوعة من الخشب ودُمى الدببة. لم يكنْ هناك إلّا بعضُ الشموع التي تفرقعُ في الرُّطوبة، وصارتْ باقاتُ الورود المتدلّية بُنّيّة اللّون. عرضَ العديدُ من المحالّ التجاريّة لافتاتٍ مصنوعةً يدويًّا تكريمًا للضّحايا، تقولُ إحداها: "ستُعينُنا المحبّةُ على اجتياز المحنة"، وكُتِبَ على لافتةٍ أُخرى: "صلّوا لأجل نيوتاون" كانت ترفرفُ على جسرِ

على الطريق السريع، وكانت الرسالةُ نفسُها مُلصَقةً خارجَ متجرٍ محلّيٍّ لبَيع الكحول. ووصَفَتِ المزاجَ العامَّ كلماتٌ كُتِبَتْ على عَجَلٍ بأحرفٍ كبيرةٍ على أحَد الجدران: "قلوبنا منكسرة".

قال والدٌ حزين للصّحافة، وهو اختصاصيٌّ معالجة: "نحن لا نعاني ضغوطَ ما بعد الصدمة، بل نعاني الصَّدمةَ الآن. لقد اختَرْنا ألّا نتَّخذَ قراراتٍ صعبةً وسريعةً بشأن أيِّ شيء. في بعض الأيّام أرغبُ في النُّهوض والخروج لشراء أغراضِ البِقالة، وفي أيّامٍ أُخرى لا أستطيعُ أن أنظِّفَ أسناني. أحيانًا أشعرُ بأنّي والدٌ صالحٌ لابني (الذي ظلَّ على قَيد الحياة)، وأحيانًا أُخرى لا أريدُ سوى البَقاءِ في الفراش والنَّوم"[2]. قال أحَدُهم إنَّه لا يستطيعُ مَحْوَ مشهدٍ من ذهنه: في ذلك اليوم المخيف، نهضَ ابنُه البالغ من العمر سبعَ سنواتٍ لسببٍ غير مفهوم قبل ساعتَين من موعده، وركضَ إلى الخارج في ثيابِ نَومه وتشقلَبَ ليَضُمَّ أخاه الأكبر سنًّا ويودِّعه قبل أن يرتديَ ثيابَه ويركبَ حافلةَ المدرسة التي كانت ستأخذه إلى حَتْفِه في ساندي هوك.

خلال ذلك الأسبوع، سمعتُ رواياتٍ عن المأساة مباشرةً من عائلاتٍ متأثّرة، ومن مُرشِدين، ومن متَجاوِبين أوّليّين، وكذلك من معلّمي ساندي هوك (لن أذكُرَ أسماءَهم حفاظًا على الخصوصيّة). من بين البالغين الذين تحدَّثت إليهم، لم أشعُرْ بروح الانتقام بل الحَيرة والحزن العميق. لم تكُنْ لدى أيِّ شخصٍ أدنى فكرةٍ للردِّ على الأسئلة المطروحة: "لماذا نحن؟"، وعلى ما يبدو أنَّ مُطلِقَ النار لم يترك أيَّ جواب.

كان الأطفالُ الناجون يتعامَلون بنجاح مع الوَضْع بطرقٍ مختلفة. انفجرَ بعضُهم غضبًا: كانت فتاةٌ صغيرةٌ تكرِّرُ رَسْم صُوَرٍ لمُطلِق النار وتطعَنُها بقلمها.

وبدَتْ على البعض الآخر علامات نَوباتِ الهلع والقلق، الخوف من العودة إلى المدرسة. "هل سأكون بأمان؟"، كان السؤالَ المؤرِقَ الذي حاوَلَ الأهالي أن يجيبوا عنه أولادَهم الناجين الذين انكمَشوا خَوفًا في الصفوف المجاورة بينما كانوا يستمعون إلى عمليّاتِ القتل التي كانت تُبَثُّ عبر نظام الاتّصال الداخليّ في المدرسة.

داخلَ مركزِ الإطفاء

في صباح يوم إطلاق النار، وصلَتْ مكالمةٌ إلى كنيسة وولنات هِل تُنذرُ أحَد رعاة الكنيسة بأخبارِ إطلاق النار في ساندي هوك حيث كانت ابنتُه ذات الثمانيةِ أعوام طالبةً هناك. غادرَ على الفَور مع القسّ الآخر الذي بعثَ برسالةٍ يطلبُ فيها مجيءَ المرشدين لدَعْم أولئك الذين كانوا ينتظرون خبرًا عن مصير أولادهم. كان الأهالي قد تجمّعوا في مركَز الإطفاء ومركَز المجتمع الذي كان بالكاد على بُعدِ نحو ٩٠ مترًا من المدرسة الابتدائيّة التي وُضِعَ حولها شريطٌ أصفرُ وكانت تعجُّ برجالِ الشرطة والمحقّقين.

وصفَ أحَدُ المرشدين المشهد. "أتينا حالما تلقّينا المكالمة. بالتّأكيد كنّا نستمعُ إلى محطّة سي أن أن (CNN) منذ انتشار خبرِ إطلاقِ النّار. ولم يَكنْ لبعضِ الشائعات أيُّ أساسٍ من الصحّة- مثلًا، اعتَقَلوا شقيقَ آدم لانزا بالخطأ- وكانت هناك رواياتٌ متَضاربةٌ إلى حدٍّ بعيد عمّا حدث. على كلِّ حال، عرَفْنا أنَّ العديدَ من الأطفال لقَوا حتفَهم، إن لم يكن جميع الذين لا يزالون داخل المدرسة. اثنا عشر؟ ثمانية عشر؟ عشرون؟ العدد الإجماليُّ لم يكن واضحًا. لكنْ عندما وصَلْنا إلى مركزِ الإطفاء أدركْنا أنَّ الأهالي كانوا يعرفون حتّى أقلَّ

مّا نعرفُ نحن. وقد طُلِبَ منهم عدم الاستماع إلى الأخبار. أُصِبت بصدمة. كان العالم كلُّه يعرفُ عن الأطفال الموتى- لكن ليس أهلهم.

وصَفَتْ صحيفةُ ذا وول ستريت جيرنال (The Wall Street Journal) المزاجَ داخلَ محطّة الإطفاء بأنّه "متوتّر ومعقّد". وصلَ بعضُ المسؤولين الرسميِّين الذين أوضَحوا أنّهم لا يستطيعون أن ينشروا المعلومات قبل أن يتمكّنوا من تحديد هُوِيَّة الضحايا. ولأنّهم لم يرغبوا في تعريض الأهالي للمشهد داخل المدرسة، طلبوا الحصولَ على أوصافٍ دقيقةٍ للملابس التي كان الأطفال يرتَدونها، كانت معظم الأمّهات قد ألبسْنَ أطفالهنّ ثيابهم في ذلك الصباح، وسرعان ما حصلَتِ السلطاتُ على التفاصيل التي كانوا يحتاجون إليها.

انضمّ الأهالي العاملون إلى الأمّهات من ربّاتِ البيوت والآباء في محطّة الإطفاء. وصلَ كهنةٌ وحاخام بالإضافة إلى رعاة كنائس محليّين آخرين ومُرشِدين. راحتْ بعضُ العائلات تعزّي الأولادَ الأكبر سنًّا الذين أُنقِذوا من المدرسة حتّى وهم ينتظرون خبرًا عن أطفال الصفّ الأوّل الذين كانوا في عِدادِ المفقودين. كانت الرسومُ الهزليّةُ لا تزالُ تُعرَضُ على شاشة التلفاز الكبيرة والذي تركَه أحَدُ الأشخاص مفتوحًا. كانت الأُسَر تتحدّثُ بأصواتٍ خافتةٍ وتضمُّ بعضُها بعضًا وتصلّي معًا وتنتظر... ساعة، ساعتان، ثلاث ساعات. كان أحَدُ الضبّاط البُدَناء يحملُ رشّاشًا شُدَّ بحزامٍ إلى صدره، يقطع الغرفةَ جيئةً وذهابًا، مّا زاد من حدّة التوتّر. لكنّ الأهالي، وهم يفترضون حدوثَ الأسوأ، تعلّقوا ببَصيص أمل. أخيرًا وصلَ حاكم الولاية. عبّر عن حزنه، وأكّدَ للأهالي بأنّ السلطات تفعلُ كلَّ ما في وسعها، وقال إنّه سيُعلِمُهم عن الأطفال حالما يتوصّلون إلى تحديد هُوِيَّتهم. وأضافَ قائلًا لهم أن يكونوا مستَعدّين للبَقاء حتّى ساعاتِ الصباح الأولى.

مَضَتْ أربعُ ساعاتٍ تقريبًا. بينما كان الحاكم يتحدَّث، سألَ أحَدُهم: "هل هناك ناجون؟" توقَّف الحاكم لبرهة وحدَّق حوله ثمَّ تابعَ حديثَه. لكنَّ ذلك الشخصَ قاطعَه ثانيةً بصوتٍ أعلى، "قُلْ لنا الحقيقة، هل هناك ناجون؟".

توقَّفَ الحاكم عن الكلام ونظرَ إلى مساعديه وكأنَّه يطلبُ المساعدة، ثمَّ نقلَ إليهم الأخبارَ التي لم يرغبْ أحَدٌ في سماعها: "إنْ لم تكونوا قدِ اجتمَعْتُم مع أحبَّائكم إلى الآن، فإنَّ هذا لن يحدُث. تقولُ المعلومات التي لدينا حتَّى هذه اللحظة إنَّ جميعَ الأطفال الذين بقَوا في المدرسة هم ضحايا الفاجعة". يتذكَّر كبيرُ مستشاري الحاكم قائلًا: "كان المشهدُ مروِّعًا. انهارَ بعضُ الأشخاص على الأرض. وصرخَ بعضهم". سمعَ الذين كانوا في الخارج النحيبَ والعويلَ الصادرَ من الداخل. شبَّه أحَدُ الشهود المشهَدَ بالشَّرق الأوسط بعد انفجار قنبلةٍ عندما يقرعُ الأقاربُ صُدورَهم وتنفجرُ ثورةُ الحزن. تلك كانت اللحظةَ التي عرفَ فيها الأهالي بصورةٍ مؤكَّدةٍ أنَّهم لن يَرَوا أطفالَهم ذوي الستِّ أو السبع سنواتٍ بتاتًا.

تحدِّي الإيمان وتوكيده

تحدَّثتُ في اجتماعَين ضَمَّا جميعَ أفراد المجتمع في كنيسةٍ مجاورة لنيوتاون، مساء يومَي الجمعة والسبت. لم يعرفْ منظِّمو الاجتماع عددَ الذين سيَحضُرون. حذَّروني قائلين: "الأهالي ليسوا متديِّنين بشكلٍ خاصّ، وربَّما يريدون التفكير في شيءٍ آخر". لكنْ رُغمَ الأعياد والعاصفة الثلجيَّة التي جعلَتِ الطرقاتِ جليديَّةً وغادرة، حضرَ ألفُ شَخصٍ الاجتماعاتِ وألفٌ غَيرهم حضروا إلى الكنيسة يوم الأحد.

لافتتاح اجتماعات المجتمع المحلّيّ، عزفَتِ الفرقة الموسيقيّة لحنًا ناعمًا بينما كان أعضاءٌ متباينون من موظّفي الكنيسة يسيرون عبر المنصّة ويُشعِلون ستًّا وعشرين شمعةً، واحدةً تلوَ الأخرى، تكريمًا لكلّ ضحيّة، بينما كان اسمُ الضحيّة يُعرَض على شاشاتٍ كبيرة. ثمّ حانَ الوقتُ لأتكلّم. نظرتُ إلى الوُجوه الحزينة مُدركًا أنّها كانت تشمَلُ أهالي الأطفال الذين رأينا أسماءَهم للتّوّ، والمعلّمين الزملاء، بالإضافة إلى المستَجيبين الأوائل الذين ساعَدوا على جمْع الجُثث. كانت نيوتاون تعبّر عن حزنها، في آنٍ واحدٍ، على فقدان ماضيها البريء والكثير من مستقبلها.

قلتُ: "فلأخبرَكُم بما لا أريدُ التحدُّث بشأنه. لن أتحدَّث بشأن ضَبْطِ استخدام الأسلحة أو الأمراض العقليّة أو الأبوّة والأمومة أو بشأن التفاصيل المروِّعة لما حدثَ في ساندي هوك. أتخيَّل أنّكم سمعتُم ما فيه الكفاية. ولن أعطيَكُم أيضًا نصائحَ عمليّةً كثيرة- بصراحة، أنا لستُ جيّدًا في هذا المجال. طُلِب منّي أن أتحدَّثَ بأمرٍ واحد، لذا سأحدِّد ملاحظاتي بالسؤال، «أين الله عندما أتألّم؟»".

تابعتُ كلامي قائلًا: "إنّي عندما فكّرتُ مليًّا في هذا السؤال بعدَ أحداثِ ساندي هوك، شعرتُ لدهشتي بأنّ إيماني توكّد ولم يتحطّم. أنا أعرفُ جيّدًا الأسئلةَ التي تُطرَح حول إلهٍ صالح وقويٍّ يسارعُ إلى الظهور عندما تضربُ المعاناة، ومعظمُ كتاباتي تطرّقت إلى هذه الأسئلة. لكن، كما كتبَ اللّاهوتيّ ميروسلاف ڤولف على موقعه الإلكترونيّ بعدَ يَومٍ من إطلاق النار في نيوتاون: «إنّ الذين يراقبون المعاناة يتعرّضون لتجرِبة رَفْض الله، والذين يختبرونها لا يستطيعون غالبًا أن يتخلّوا عن الله وعن عزائهم وعذابهم»[٢]. إنّ حضورَ هذا العدد الكبير من الأشخاص إلى الكنيسة في يَومٍ شتويٍّ بارد أثبتَ وجهةَ نَظرِه.

قال ڤولف أيضًا: «لا يمكنك أن تحتجَّ على الشرِّ في العالم إلَّا إذا كنتَ تؤمنُ بإلهٍ صالح، وإلَّا فلا معنى للاحتجاج»[4].

قبل وقتٍ ليس بطَويلٍ من تلقّيَّ المكالمةَ الهاتفيَّة من نيوتاون، كنتُ قد قرأتُ رواية الأسقف ديزموند توتو (Desmond Tutu)[5] عن تجرِبته في جنوب أفريقيا. بوصفه رئيسًا لهيئة الحقيقة والمصالحة، أعدَّ نفسَه لاختبارٍ قاسٍ في لاهوته، بشكلٍ جزئيٍّ لأنَّ «المسيحيِّين الصالحين» ارتَكَبوا العديدَ من الجرائم (مع ذلك كانت سياسةُ الفصل العنصريِّ من بناتِ أفكارِ كنيسة الإصلاح الهولنديَّة هناك وعقيدتها الرسميَّة). يَومًا بعد يَوم كان توتو يستمعُ إلى شهاداتِ من ضحايا الاعتداءات الوحشيَّة. كان العملاءُ من المستَوطِنين الهولنديِّين (Africaner) يضربون المشتَبَه بهم ويُفقِدونَهم الوعي، وفي بعض الأحيان يُطلِقون النارَ عليهم بدَمٍ بارد. وكان السُّودُ يعلِّقون إطاراتٍ مشبَّعة بالبنزين حول أعناقِ أنصارِ الفَصْل العنصريِّ ومن ثمَّ يشعلونَها.

اكتشفَ الأسقف توتو، دون أن يتوقَّعَ هذا، أنَّ سنتَين من الإصغاء إلى تقارير كهذه ساعدَتْ على تثبيت إيمانه. أقنعَتْه الاستجواباتُ بأنَّ مرتكبي الجرائم كانوا مسؤولين من الناحية الأخلاقيَّة، وأنَّ الشرَّ والخيرَ كلَيهما حقيقيَّان ومُهمَّان؛ «لأنَّ هذا الكَون قد رُكِّبَ بحَيثُ إنَّنا إنْ لم نَعِشْ فيه وَفقًا لقوانينه الأخلاقيَّة، فإنَّنا سندفعُ الثمن». رُغمَ الروايات المتواصلة عن الأعمال اللّاإنسانيَّة، فإنَّ توتو خرجَ من استجوابات هيئة الحقيقة والمصالحة بأملٍ متجدِّد: «بالنسبة إلينا نحن المسيحيِّين، إنَّ موتَ يسوعَ المسيح وقيامته هما دليلٌ إيجابيٌّ على أنَّ المحبَّةَ أقوى من الكراهِيَة، والحياةَ أقوى من الموت، والنورَ أقوى من الظلمة، والضَّحكَ والفرحَ والتَّعاطُفَ واللُّطفَ والحقيقة- كلُّها أقوى بكثيرٍ من مثيلاتها المخيفة».

بالنسبة إليَّ، عَمِلَتْ أحداثُ ساندي هوك على تَوكيد استنتاج توتو.

كنتُ أقرأ أيضًا «الملحدون الجدد» (New Atheists) وقرأتُ أيضًا لعُلَماء الأحياء المؤمنين بالتطوُّر الذين يرفضون بشكلٍ قاطع نظرةَ توتو إلى الواقع. مثلًا، ريتشارد دوكنس (Richard Dawkins)[٦] الذي يسخر من الدِّين ويحسبُ أنَّه «فيروس العقل» ويقول إنَّ للكَون «على وجه التحديد، الخصائصَ التي ينبغي أن نتوقَّعَها لو لم يكُنْ هناك في الواقع تخطيطٌ أو هدفٌ أو شرٌّ أو خَير، لا شيء إلّا اللّامُبالاةَ العمياء العديمة الرحمة». ويصفُ ستيفن جاي غولد (Stephen Jay Gould)[٧] البشرَ بأنَّهم «حادثةٌ كَونيَّةٌ سريعةُ الزوال لن تنهضَ ثانيةً لو كان بالإمكان إعادة زرع شجرة الحياة». وَفقًا لهذين الشخصَين وإلى علماءَ حديثين آخرين، نحن لسنا أكثرَ من كائناتٍ حيَّةٍ معقَّدةٍ تنظِّمُها جيناتٌ أنانيَّةٌ لتعملَ بصورةٍ بحتة من منطلَقِ المصلحة الشخصيَّة".

ثمّ سألتُ الذين تجمَّعوا في نيوتاون: "أهذا هو ما اختبرتُموه؟" وأنا واقفٌ أمامهم، بدَتِ افتراضاتُ الملحِدين الجدد جَوفاءَ أكثر من ذي قبل. "أنا لا أعتقد هذا. لقد رأيتُ مشاعرَ تفيضُ بالحزن والتَّعاطُف والكَرَم- وليس اللّامبالاة العمياء العديمة الرحمة. لقد رأيتُ أعمالَ الإيثار لا الأنانيَّة: في هيئة التدريس في المدرسة الذين ضحُّوا بحياتهم لإنقاذ الأطفال، في التجاوُبِ التَّعاطُفيِّ للمجتمع والأمَّة. لقد رأيتُ ما أظهَرَ بوُضوح اعتقادًا عميقًا أنَّ الناسَ الذين ماتوا مُهِمُّون، بأنَّ شيئًا لا يقدِّر بثَمنٍ انطفأ في ١٤ كانون الأوَّل/ديسمبر".

وسط الصدمات، حتَّى الثقافة العَلْمانيَّة الصارمة تعترفُ بقيمةِ كلِّ كائنٍ بشريّ، وهذه فكرةٌ منقولةٌ عن المُعتَقَد المسيحيّ الذي يقول إنَّ كلَّ فردٍ يعكسُ صورةَ الله. أذكرُ أنَّه بعد ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠١١م، التزمَتْ صحيفةُ نيويورك تايمز (New York Times) نَشرَ نَعْيٍ لإكرام كلِّ واحدٍ من الأشخاص الثلاثة آلاف

الذين قُتِلوا في الهجمات على مركَز التجارة العالميّ كما لو أنّهم مُهمُّون وليسوا أحداثًا كَونيّةً في كَونٍ من اللّامبالاة العديمة الرحمة. (فكّروا أيضًا في أنّ وسائل الإعلام بعد مأساةٍ وطنيّة ما، تلجأ إلى الكهنة والحاخامات والقساوسة، بينما يحافظ الملحدون على صَمتِهم الحذِر).

رُغمَ أنّ المأساةَ تجعلُنا نتساءلُ بحقٍّ بشأن الإيمان، فإنّها تؤكّدُ الإيمان أيضًا. حقًّا إنّها أخبارٌ سارّةٌ أنّنا لَسْنا منتجاتٍ فرعيّةً غير مُخطَّطٍ لها لِكَونٍ غيرِ شخصيّ، بل خلائقُ إلهٍ مُحِبٍّ يريدُ أن يعيشَ معنا إلى الأبد. في نيوتاون طرحتُ السؤال المعتادَ مع تغييرٍ طفيف: "أين «اللّا إله» عندما أتألّم؟ يُقدِّمُ مخرج الأفلام إنغمار بيرغمان (Ingmar Bergman)[^] الإجابةَ الحديثة: «وُلدتَ دون هدف، وتعيشُ دون معنى، العَيش هو المعنى في ذاته. عندما تموت، فإنّك تفنى»".

إنّ الأهاليَ الذين قابلتُهم والذين فَقَدوا طفلًا في ساندي هوك يتراجَعون خوفًا من هذه النتيجة. إنّهم يتمسّكون بشدّة بالأمل القائل إنّ وُجودَ ابنهم أو ابنتهم لم ينتَهِ في ١٤ كانون الأوّل/ديسمبر ٢٠١٢م، بل إنّ إلهًا شخصيًّا ومحبًّا سيَفي بالوَعد ليعدّ منزلًا كاملًا لنا.

إلقاف الحياة

ومع ذلك، فإنّ القضايا التي أثارَتْها المأساةُ لا تزولُ بسهولة. هناك سؤالٌ يتردَّدُ صداه عبر الأزمة: هل يستحقُّ هذا العالم، حتّى عالم سيُعيدُ الله تجديدَه يومًا ما، الألم الذي يحيط به؟ في اليابان تحدَّثتُ إلى امرأةٍ تركَتْ طفلَيها مع جدّتِهما في أوّلِ يَومٍ لها في وظيفتها الجديدة، وكانت تعاقبُ نفسَها الآن لأنّ الجدّةَ لم

تكُنْ قادرةً على مساعدتهما على الهرب من التسونامي. وفي سرايِيڤو، وقفتُ على هضبةٍ حيثُ كان القنّاصةُ يستهدفون الأطفال عمدًا بينما كانوا يندفعون بسرعةٍ عبر أرضٍ مكشوفةٍ لجَلْب المياه. وفي نيوتاون سألَ صبيٌّ صغير: "مع مَنْ سألعب الآن؟".

لماذا يسمح إلهٌ مُحبٌّ بحدوث مثل هذه الأُمور في المقام الأوَّل؟ في افتتاحيَّة صحيفة نيويورك تايمز (The New York Times) عن ساندي هوك، تطرَّق روس دوثات (Ross Douthat)[٩] إلى المشهد المشهور في رواية الأديب الروسيِّ فيودور دوستويفسكي (Feodor Dostoevsky) "**الإخوة كارامازوف**" *(Brothers Karamazov)* حيث يروي إيڤان (Ivan) قصصَ أطفالٍ تعرَّضوا للضَّربِ والتعذيب، ويخلُصُ روس إلى القَول إنَّه لا يستطيعُ أن يقبلَ إلهًا يتساهَلُ لأيِّ سببٍ كان مع معاناة الأطفال. وبصورةٍ مشابهة، يُعلنُ الطبيبُ في رواية "**الطاعون**" *(The Plague)* للكاتب ألبير كامو (Albert Camus)[١٠] وهو يشاهدُ طفلًا يموتُ من الطاعون الدمَّليّ (Bubonic plague)، "أنا أرفضُ المشاركةَ في مخطَّطٍ يتساهَلُ مع هذه الأمور".

لا يمكنُ إلَّا لإلهٍ يعاني أن يجيبَ ما إذا كان هذا الكَوكَبُ يستحقُّ هذه التكلفة. لديَّ فكرةٌ عن الجواب، لكنْ بعد أن تحدَّثتُ مع أُسَرٍ فقدَتِ ابنًا أو ابنة. إذا سألتَ هذه العائلات "هل كانت السنوات الستُّ أو السبع التي أمضيتُموها مع أطفالكم تستحقُّ الألم الذي تشعرون به الآن؟"- فإنَّك ستسمعُ جَوابًا حاسمًا بالإيجاب. وكما كتبَ الشاعر ألفريد لورد تينيسون[١١] بعد وفاةِ صديقٍ شابّ: "من الأفضل أن تكونَ قد أحببْتَ وفقدْتَ من ألَّا تكونَ قد أحبَبْتَ بتاتًا". لعلَّ الله يشعرُ هكذا تُجاه خليقةٍ ساقطة؟

أوصيتُ العائلاتِ في نيوتاون بقراءةِ كتابِ صغيرٍ للرّاحل الكاهن الأسقفيّ جون كلايبول (John Claypool)[١٢]، وهو كتابٌ جلَبَ العزاءَ لعائلاتٍ كثيرةٍ فقدَتْ طفلَها. يُعطينا عنوانُه بالذّات تلميحًا للسّبب. في كتابه "مساراتُ صراعٍ زميل" (Tracks of Fellow Struggler)، لا يكتبُ بوَصفِه قسًّا يقدِّم ملاحظاتٍ مبتذلة، بل بوصفه أبًا يصرخُ في معاناةٍ شديدةٍ إلى إلهٍ يبدو أنّه لا يقدِّم عزاءً. يبحثُ لمدّةِ ثمانيةَ عشرَ شهرًا عن حلٍّ لسرطانِ الدّم الذي أصابَ ابنتَه البالغة ثماني سنوات، ويسعى إلى أفضل الأطبّاء، ويسمح لكارزين إنجيليّين مشهورين بالشّفاء بأن يمسَحوها بالزّيت، ويلتمس دعمًا بالصّلوات من رعيّته وأصدقائه، ثمّ تموتُ الفتاة.

لم يشعُرْ كلايبول بالراحة العاطفيّة إلّا بعدَ صراعٍ كبير عندما تخلّى عن كلِّ ما كان سيَختبرُه معها- تخريج ابنته من الجامعة، السير بجانبها في ممشى الكنيسة عند زواجها، رؤية حفدته منها- وارتَضى بقبول حياتها بوصفها عطيّةً انتهَتْ سريعًا بقَسوة، ومع ذلك، لا فرق، فقد كانت عطيّةً بحدِّ ذاتها.

> وأنا هنا لأشهدَ بأنَّ هذا هو الطريقُ الوحيدُ للنُّزول من "جبل الخسارة". أنا لا أقصدُ أنْ أقولَ إنَّ هذا المنظورَ يجعلُ الأمورَ سهلة؛ فهو لا يفعلُ ذلك. لكنّه على الأقلّ يجعَلُ الأمورَ مُحتمَلة عندما أتذكَّرُ أنَّ لورا لو (Laura Lue) كانت عطيّةً نقيّةً وبسيطة- شيئًا لم أكسبْه ولا أستحقُّه وليس لديَّ الحقُّ في ذلك. وعندما أتذكَّرُ أنَّ ردَّ الفعل المناسبَ للهديّة، حتّى عندما تُؤخَذ منك، هو الشكرُ والعرفان، عندئذٍ أكونُ قادرًا على محاوَلةِ تقديمِ الشكر إلى الله لأنّه أعطاني إيّاها في المقام الأوّل.

رُغمَ أنَّ الأمر صعب، صعبٌ جدًّا، فإنّي أبذل قُصارى جَهدي لأتعلّم هذه القاعدة. في كلّ مكان أوجَدُ فيه، أكون مُحاطًا بأشياء تذكّرني بها- أشياء قمنا بها معًا، أشياء قالتها هي، أشياء أحبَّتها. وفي وجود هذه الأشياء التي تذكّرني بها، يكون لديَّ خِياران: الإسهابُ في التفكير في حقيقة أنّها أُخِذَتْ منّي، وهذا ما يجعَلُني أنغمسُ في ندمي على كَون جميع هذه الأشياء قد ذهبَت إلى الأبد؛ أو التركيز على رَوعةِ كَونِها قد أُعطيت لنا في المقام الأوّل، عندئذٍ أستطيعُ أن أتعلّم أنْ أكونَ شاكرًا لأنّها شاركَتْنا الحياة، حتّى لمدّةِ عشر سنواتٍ قصيرة.

يختم كلايپول بالطّلب من أفراد رعيّته وأصدقائه وقُرّائه مساعدتَه على أن يتذكّر بأنّ الحياةَ عطيّةٌ- كلّ جُسَيم أخيرٍ فيها، وبأنّ الطريقةَ للتّعامُل مع العطيّة هي أن تكونَ شاكرًا. إنّنا نعاملُ العطايا بصورةٍ مختلفةٍ عن معاملَتِنا للممتلكات. وكما ذكّرَني طبيبٌ ذاتَ مرّةٍ أنّ كلّ حياةٍ هي قَرضٌ وهي ستَعودُ إلى المُقرِض.

قبل أن أسافرَ إلى نيوتاون مباشرةً، تلقّيتُ رسالةً إلكترونيّةً من صديقٍ في أتلانتا كان قد حضرَ خدمة "الانقلاب الشتويّ" في ٢١ كانون الأوّل/ ديسمبر، وهي أطوَلُ ليلةٍ في السنة. ركّزَتْ خدمة الكنيسة على الخسائر التي نتكبّدها في الحياة، وذكرَ المشاركون أسماءَ مَن ماتوا والعلاقات التي انقطعت. أرفقَ مَوعظتَه بكلماتِ اللّاهوتيّ الألمانيّ ديتريش بونهويفر التي أعطَتْه، على حدّ قَوله، طريقةً جديدةً للتّفكير في مَوتِ الذين سيَفتقدُهم دائمًا. "لا شيءَ يعوّضُ عن غياب شخصٍ نحبُّه، وسيكون من الخطأ محاوَلةُ إيجاد بديلٍ عنه. يجب علينا ببساطةٍ أن نصمدَ وندركَ حقيقةَ ما حدث. يبدو هذا صعبًا جدًّا في

البداية، لكنْ في الوقت ذاتِه هو عزاءٌ كبير. إنَّ مكانَه يبقى شاغرًا يُحافظُ على الرّوابط ما بيننا. من السخافة القَول إنَّ الله سيملأُ المكانَ الشاغر. الله لا يملأُه، بل هو أيضًا يُبقيه فارغًا، وبذا يساعدُنا على أن نُبقي شركتنا السابقة بعضنا مع بعضٍ حيّة حتّى بتكلفةِ الألم"[١٣].

الحزنُ هو المكانُ الذي يلتقي فيه الألم والمحبّة.

مفهومان عالميّان

يلاحظ نيكولاس وولترستوف (Nicholas Walterstorff)[١٤] في "رثاءِ ابنٍ" أنّه رُغمَ تعلُّمنا أن نحلَّ مشكلاتٍ كثيرةً على مرّ التاريخ، "سيبقى هناك أمران ثابتان علينا أن نتعاملَ معهما: الشرُّ في قلوبنا والموت". الشرُّ والموت يطرحان مشكلاتٍ عالميّةً عَصِيَّةً على أيِّ حلٍّ بشريّ، وذات صباحٍ رهيبٍ واجَهَتْهما نيوتاون وَجهًا لوَجه.

من الصراعات التي طالَتْ سنواتٍ عديدة، مثل الصراع في سراييفو، إلى الفظائع التي دامَتْ دقائقَ فقط، مثل ما حدثَ في ساندي هوك وتفجيرات ماراثون بوسطن، لا تزال حقيقةُ الشرِّ البشريِّ تقتحمُ عنوةً التفاؤل البشريّ، كما حدث في ساندي هوك. شهدَتْ ولايةُ كولورادو حيثُ أقطنُ في السنوات الأخيرة جريمتَين مشهورتَين سيّئتَي السُّمعة: جريمةَ إطلاقِ النار الجماعيّ في ثانويّة كولومبين، وجريمة إطلاق النار في دار السينما في أورورا. لا يستطيعُ أحدٌ أن يلومَ الفقرَ أو نقصَ التعليم على سلوكِ مُطلِقي الرصاص هؤلاء؛ لأنّهم ينتمون إلى عائلاتٍ تتمتّع بامتيازات. عاش آدم لانزا، شرّير بلدة ساندي هوك، في بيتٍ جميل في حيٍّ مرتفع التكاليف، وكانت والدتُه تحصل على نَفَقةٍ شهريّة

تُقدَّر بنحو ٢٥,٠٠٠ دولار. وكان لانزا على لائحة الشرف في المدرسة. أمَّا مُطلِقُ النار في أورورا فتخرَّجَ بمرتبةٍ عاليةٍ بوصفه طالبًا في مجال علم الأعصاب. أين يكمنُ الخطأ إذًا؟ كيف يستطيعُ شابٌّ أن يُطلقَ النار بشكلٍ منهجيٍّ على زملاء صفِّه في المدرسة الثانويَّة، أو على غرباء في دار السينما- أو، بطريقةٍ لا يمكن تخيُّلها، على غرفة صفٍّ فيها تلاميذُ مذعورون من الصفِّ الأوَّل- من على مسافةٍ قريبة؟

بعد كلِّ مأساة كهذه، تبادرُ الصحافةُ إلى إطلاق لعبةِ اللَّوم. سهولةُ الحصول على الأسلحة، لا سيَّما الأسلحة الهجوميَّة، تلعبُ دَورًا محدَّدًا، وكلُّ حادثة تثير جدالًا جديدًا وقواعد جديدة. ومع ذلك، لا تواجه ثقافات الأسلحة الأخرى (مثلًا، سويسرا وكندا) النوع نفسه من إطلاق النار الجماعيّ. أينبغي لنا إذًا أن نلومَ عدمَ الاهتمام بالصحَّة النفسيَّة؟ إنَّ القتلةَ في كولومبين وكليَّة فيرجينيا التكنولوجيَّة وأورورا ونيوتاون بعثوا بإشاراتٍ مُقلِقةٍ كان ينبغي أن تُنبِّه إلى الخطر الداهم.

ويُشير آخرون بأصابع الاتِّهام إلى ألعاب الفيديو وإلى أسلوب هوليوود الثابت في ترويج العنف والتعذيب. والبعضُ يضعُ اللَّوم على وسائل الإعلام وطريقة عَرضها لوقائع الأحداث التي تجلبُ القَتَلة. كان آدم لانزا يحتفظُ بجَدوَلٍ لتفاصيل حوادثِ إطلاقِ نارٍ جماعيَّةٍ مشابهة. والبعضُ يلومُ القضاةَ الذين حرَّموا الصلاةَ والتحدُّث بشؤون الله في المدارس العامَّة.

غير أنَّ قليلين يُسمُّون أعمالًا كهذه شرِّيرة، وهي بالتَّأكيد كذلك. تشارلز تشابوت (Charles Chaput)[١٥] هو استثناءٌ لهذه الحقيقة. بعد كولومبين، قال رئيس أساقفة دنفر (Denver): "العنف الآن منتشرٌ على نطاقٍ واسعٍ في المجتمع

الأميركيّ- في بيوتنا، في مدارسنا، في شوارعنا، في سيّاراتنا بينما نقودُها من العمل إلى البيت، في وسائل الإعلام، في إيقاعات موسيقانا وكلماتها، في الروايات والأفلام وألعاب الڤيديو. إنّه منتشر حتّى إنّنا صِرْنا إلى حدٍّ كبير لا نعي وجودَه".

وفي ردٍّ فعله على إطلاق النّار في ساندي هوك، كتب تشاپوت (وهو الآن رئيس أساقفة فيلادلفيا):

الله صالحٌ، لكنّنا نحن الكائناتِ البشريَّةَ أحرار. ولأنّنا كذلك، فإنّنا نُسهِمُ في تشكيل طبيعةِ عالمنا بالاختيارات التي نقوم بها. إنّ كلَّ حياةٍ فُقِدَت في كونكتيكيت كانت فريدةً من نَوعها وثمينةً ولا يمكن تعويضها. لكنّ الشرَّ كان عملًا نمطيًّا- كلُّ جيلٍ غنيٌّ به. لماذا يسمحُ الله بالحرب؟ لماذا يسمح الله بالجوع؟ نحن لسنا النتاج الحتميَّ للتّاريخ أوِ الاقتصاد أو أيّةِ معادَلةٍ حتميّةٍ أُخرى. نحن أحرار، لذا فنحن مسؤولون عن كلِّ من الجمال والمعاناة اللّذين نُسهِمُ في صُنعِهما. لماذا يسمح الله بالشّرّ؟ إنّه يسمَحُ به لأنّنا نحن- أو آخرين مثلنا تمامًا- نختاره. إنَّ التّرياق الوحيدَ الفعّال للشرّ الموجود من حَولِنا هو أن نعيشَ بطريقةٍ مختلفةٍ من الآن فصاعدًا.[16]

إنَّ حرّيّتنا في ارتكابِ أعمال الشرّ هي في جَوهرِها شَكوى إيڤان كارامازوف ضدَّ الله. إيڤان ليس ملحدًا، فهو يؤمن على الأقلّ في احتمال وُجودِ إلهٍ صالحٍ وقويّ. إنّه حتّى يسلّم بأنّ الله سيَمسحُ ذاتَ يوم كلَّ دمعةٍ ويحلُّ مشكلاتِ الظُّلم في هذا العالم، لكنّه مع ذلك يعترضُ على مخطَّطٍ كهذا بسبب التكلفة؛

لأنّ الله كان متهوّرًا جدًّا في ما يتعلّق بحرّيّة الإنسان. في الرواية، يذكرُ إيڤان سلسلةً من الأفعال البشعة: قَطْع جنينٍ من رَحِمِ أمّه، إطلاق مجموعةٍ من كلاب الصّيد على عبدٍ يبلغُ من العمر ثماني سنوات، إطلاق النار من مسدّس على وجه طفل- التي جمعَها المؤلّف دوستويفسكي[١٧] من أحداثٍ حقيقيّةٍ مُعاصِرة. لو أنّه كان يكتبُ اليوم، لكانَ من المحتمل أن يُدرجَ مشهدَ المسلّح وهو يقتلُ أطفالًا في غرفة صَفِّهم.

يقول إيڤان متحدّيًا أخاه أليوشا (Alyosha): "قُل لي أنت. تخيَّلْ أنَّك تصنعُ بُنيةَ المصير البشريّ بهدفِ جَعْلِ الإنسان سعيدًا في النهاية، وتمنحُه السلامَ والراحةَ أخيرًا، لكنْ كان من الضروريّ جدًّا والمحتَّم أن تعذِّبَ مخلوقًا صغيرًا جدًّا فقط... هل توافقُ على أن تكونَ المهندسَ المعماريَّ بشروطٍ كهذه؟ قُل لي، وقُل الحقيقة".

يُجيب أليوشا بهدوء: "كلّا".

يستطيع إيڤان اللّاأدريُّ أن يُشخِّصَ الشرَّ وفَشَل كلِّ نظامٍ بشريٍّ في التعامل معه، لكنّه لا يستطيع أن يقدّمَ أيّةَ حلول. لا يحاول أليوشا الوَرِعُ أن يقدّمَ دَحْضًا له، لكنَّ لديه حلًّا للبشريّة. يقول: "لا أعرفُ الجوابَ لمشكلة الشّرّ، لكنّي أعرفُ المحبّة". تنتقلُ الرواية مباشرةً إلى قصّتها المحوريّة: "المحقّق الكبير"، والتي يُتّهم فيها يسوع- من ممثّلي الكنيسة، لا أقلَّ من ذلك- بجريمةِ ابتلاء الناس بالكثير من الحرّيّة.

يقدّمُ دوستويفسكي مشكلةَ الشرّ بأسلوبٍ متناغم مع الكتاب المقدَّس، ولا يقدّم براهينَ فلسفيّةً، بل يقدّمُ بدلًا من ذلك قصّةً- قصّةَ عمّانوئيل الحقيقيّةَ التاريخيّة. لم يختَرِ الله أن يَطغى على حرّيّة الإنسان، بل انضمّ إلينا

بدلًا من ذلك وسط الشرّ وصارَ أحَدَ ضحاياه. لم يَقْضِ يسوعُ على الشَّرّ، لكنَّه أعلنَ عن إلهٍ مستعدّ، بتكلفةٍ هائلة، أن يغفرَ له ويشفي الأذى الذي ألحقَه.

عندما تحدَّثتُ في نيوتاون بعد ثلاثة أيّام من عيد الميلاد المجيد، قرأتُ إعادةَ صياغةٍ لتمهيد إنجيل يوحنّا من ترجمة "الرسالة": "والكلمة صار جسدًا ودمًا وانتقل إلى الحيّ"[١٨]. أيّ نوعٍ من الأحياء انتقل إليه يسوع؟ سألتُهم مرّةً أخرى. هل هو مشهد مطبوعة أيفس آند كورير للمروج النقيّة والبيوت ذات الطراز الڤيكتوريّ؟ بالتّأكيد لا- في هذا الحيّ، كما يذكّرنا متّى: "صوتٌ سُمع في الرامة نوحٌ وبكاءٌ وعويلٌ كثير. راحيل تبكي على أولادها ولا تريد أن تتعزّى لأنّهم ليسوا بموجودين"[١٩].

تتضمّنُ قصّةُ الميلاد أوضاعًا مشابهةً إلى حدٍّ كبير لما وجدتُه في نيوتاون. يتكهّنُ العلماءُ أنَّ بلدةً في حجم بيت لحم ربّما كان فيها نحو عشرين- عشرين!- طفلًا مثل الذين قتلهم هيرودس. في النهاية، الله أيضًا الذي "أحبَّ العالم حتّى بذل ابنه الوحيد" فقَدَ طفلًا. الله يعرفُ شيئًا عن الحزن الذي تشعرُ به نيوتاون، بالإضافة إلى اسمِ كلّ مكانٍ على خريطة الكَوكَب غارقٍ في الشرّ والموت. نيوتاون هي في الواقع بلدةٌ قديمةٌ جدًّا.

أسئلة صعبة

للأسف، إنَّ أخويّة الذين يعانون مأساةً ما، وهي نادٍ لا يرغبُ أحَدٌ في الانضمام إليه، تستمرُّ في النّموّ. عند زيارتي إلى كلّيّة ڤيرجينيا للتكنولوجيا بعد إطلاق النار هناك، رافقَتْني إحدى الناجيات المعاقات من كولومبيا. أصغى الطلّاب بانتباهٍ شديدٍ إلى نصائحها؛ لأنّه كانت لديها معرفةٌ شخصيّةٌ بما كانوا يشعرون به

وبما قد يتوقّعونه في مرحلةٍ مقبلة. بعد مأساةِ ساندي هوك، انتقلَتْ صحيفةُ دنفر بوست (Denver Post)[٢٠] إلى العائلات المتأثّرة مباشرةً بإطلاقِ النار في ثانويّةِ كولومبين قبل ثلاث عشرة سنة. أيّ تعزيةٍ كان في وُسعهم أن يقدّموها إلى العائلات المحزونة في نيوتاون؟ إنّ كلماتهم، التي شاركتُها مع المجتمع المحلّيّ، تنطبقُ ليس فقط على إطلاق النار الجماعيّ، بل أيضًا على جميع المآسي.

قالَ أحَدُ الطلّاب: "إنّ أوّل شيءٍ أودُّ قَوله هو إنّ هناك الكثير من الأشخاص الذين يفهمون تمامًا ما تعانونه الآن. وفي الوقت نفسه، لا يوجَدُ أحَدٌ يفهم تمامًا ما تعانونه... إنّ ما حدثَ لكم لا يُشبِهُ أيَّ شيءٍ كان قد حصلَ لأيِّ شخصٍ آخر- بما فيهم نحن الذين عانَينا في كولومبين".

أوضحَ والدُ فتاةٍ تُوُفّيتْ في كولومبين قائلًا: "لستُ متأكّدًا ممّا سأقولُه لكم. اكتشفتُ أنّه من الأفضل أحيانًا ألّا يقولَ الناس أيَّ شيء لأنّكم متألّمون بعُمقٍ حتّى إنّكم لا تريدون أن تسمَعوا أيَّ شيءٍ ما عدا الشيءَ الذي يُعيدُ طفلَكم إليكم". وأضاف: "لكنْ إذا ما سألتُموني، فإنّي أقدّم هذه الكلمات: بمرور الوقت، يصيرُ الألم أقلّ. وبمرور الوقت، رُغمَ أنّكم لن تنسَوا بتاتًا ولن تتعافَوا من الحادثة، فإنّ في وُسعكم أن تُتابِعوا حياتَكُم. وستَشعُرون بالفَرح ثانيةً مع أنّه يبدو بعيدًا جدًّا الآن".

النصيحةُ الأُخرى التي أعطاها الناجون بدَتْ أساسيَّةً، لكنْ لا شيءَ يكونُ سهلًا بالنسبة إلى شخصٍ يشعرُ بحزنٍ عميق. اصرُخوا عندما تحتاجون إلى المساعدة. واقبَلوا حقيقةَ أنّ بعضَ الناس سيَقولون أمورًا تفتقرُ إلى الإحساس المرهَف. لكنْ لا تُسكِتوا زَوجاتِكُم أو عائلاتِكُم. اعتَنوا بأنفسكم. تنفّسوا الصُّعَداء.

كان الوقتُ الأكثرُ تحدِّيًا لي في نيوتاون بعد أن تحدَّثتُ هناك هو عندما جلستُ على أريكةٍ بجانب أحَدِ القساوسة وأجبْتُ ارتجالًا عن أسئلةٍ مختلفة من الحضور. سألَ أحَدُهم: "ماذا نقولُ لشخصٍ فقدَ أحَدَ أحبّائه؟" وسأل آخر: "كيف أكونُ نورًا لأحَدِ المجتمعات المحلّيّة في حين أشعرُ بألمٍ شديدٍ وأنا إنسانٌ مُدمَّر؟" بذلتُ قُصارى جَهدي للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها وكنتُ أُحيلُها إلى القسّ عندما لم أكُنْ أعرفُ ما عليَّ قَوله.

سألَ عدَّةُ أشخاصٍ بطرقٍ مختلفة: "ماذا يمكنُنا أن نتوقَّعَ في السنوات المقبلة؟ كيف نستطيعُ أن نوقِفَ تلطُّخَ اسم نيوتاون إلى الأبد؟".

ذكرتُ قصّةَ مَوقع إطلاق النار على مدرسة في دنبلاين (Dunblane) في اسكتلندا عام ١٩٩٦م التي تُوُفّيَ فيها ستّةَ عشرَ طالبًا ومعلّمهم. من بين الطلاب المختَبِئين تحتَ طاولة المكتب، كان طالبٌ في الثامنةِ من عمره اسمه آندي موراي (Andy Murray)[٢١]، الذي كَبُر ليصيرَ أحَدَ أفضل لاعبي التِّنِس في العالم. وكما ذكَرَتْ جَدَّتُه لإحدى القنوات الرياضيّة: "أعتقدُ أنّه في أعماقه كان يريد أن يفعلَ شيئًا- أن يضع دنبلاين على الخريطة للأسباب الصحيحة بدلًا من الأسباب الخاطئة". وقد حقّق ذلك الهدفَ بعد أولمپياد لندن عام ٢٠١٢م عندما اختارَ أن يحتفل بميداليّته الذهبيّة مع المشاركين في موكب النصر الخاصّ- ليس في لندن مع الفائزين الآخرين، بل في بلدة دنبلاين الصغيرة جدًّا.

في وقتٍ لاحق، بعد عَودتي إلى البيت من نيوتاون، وقَعَتْ بين يديَّ مذكّرات من جون دراين (John Drane)[٢٢]، وهو قسٌّ كان يُقيمُ قرب دنبلاين وقتَ وقوع مجزرةِ المدرسة:

ذات مرّة، في طريقي إلى بوّابة المدرسة التي صارتْ مكانًا صامتًا

تقريبًا، رأيتُ مجموعةً من الشباب تتراوحُ أعمارُهم ما بين السابعة عشرة والعشرين. رأيتُهم يضَعون ستَّ عشرةَ شمعةً- واحدةً عن كلِّ طفلٍ تُوُفِّي- في شكلٍ دائرةٍ على أرض الشارع الرَّطِبة ويشعلونها بسيجارة... رأوني وأدركوا أنِّي قسٌّ ونادَوني بهذه الكلمات، "أنت تعرفُ ما يجب قَولُه في حالاتٍ كهذه". وقفتُ هناك والدموع تنسابُ على وجهي. لم تكنْ لديَّ أدنى فكرةٍ عمَّا سأقوله. فوقَفْنا هناك وأمسَكْنا بأيدي بعضنا بعضًا. بعدَ بُرهةٍ قصيرة، تلَوتُ صلاة. ثمَّ بدأ المراهِقون يصلُّون أيضًا. قال أحَدُهم: "يجب أن أتغيَّر!" وسحبَ سكِّينًا من جَيبه بينما كان يحدِّقُ في مجموعةٍ من رجال الشرطة. ركعَ بجانب الشموع وقال: "لا أعتقد أنِّي سأحتاجُ إلى هذه بعدَ الآن" ثمَّ خبَّأ السكِّين تحتَ بعضِ الوُرود. وسحبَ شخصٌ آخرُ قطعةً من سلسلةِ درَّاجةٍ من جَيبه وفعلَ الأمرَ ذاتَه. بعدَ وُقوفِنا معًا لِلَحظةٍ أخرى، ذَهَبْنا في سبيلنا.

هل كان الله في دنبلاين؟ دون شكّ.

تؤكِّدُ قصَّةُ دراين ما قالَه تشارلز تشاپوت بعد ساندي هوك: "إنَّ التِّرياقَ الوحيدَ الفعَّال للشرِّ الموجود من حَولنا هو أن نعيشَ بطريقةٍ مختلفةٍ من الآن فصاعدًا"[٢٢]. منذ مَوجةِ المَآسي الأخيرة، مرَّتِ الأمَّةُ بأكملها بعمليَّةِ بحثٍ عن الذات، باحثةً عن جوابٍ لما ينبغي أن يتغيَّر في ثقافتنا.

طُرِحَ سؤالٌ آخرُ أخيرٌ من المستَمِعين في لَيلتي الأخيرة في نيوتاون، وكان السؤالُ الذي لم أرغبْ في سماعه: "هل سيَحمي الله طفلي؟".

بقيتُ صامتًا لبرهة بدَتْ كأنّها دقائق. أردتُ أن أجيبَ أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخرَ بقوّةٍ مُقنعة، "أجل! بالتّأكيد، إنَّ الله سيَحميكم. فلأقرأْ لكِ بعضَ الوُعودِ من الكتاب المقدّس". لكنّني كنتُ أعرفُ أنَّ ستًّا وعشرين شمعةً ورائي على المنصّة نفسِها كانت تومض في ذكرى الضحايا، وهو دليلٌ على أنّه ليسَتْ لدينا حصانةٌ من آثارِ كَوكَبٍ مُحطَّم. عُدتُ في أفكاري بسرعةٍ إلى الوراء، إلى اليابان، حيثُ سمعتُ عن أهالي فقدوا أطفالهم في التسونامي في المدرسة المتوسّطة، وإلى الأمام إلى ذلك الصباح عندما سمعتُ عن أهالٍ فقدوا أطفالَهم بسبب مُطلقِ النار في مدرسةٍ ابتدائيّة.

أخيرًا قلت: "كلّا، أعتذر. لا أستطيع أن أقدّم هذا الوعد". لا أحَدَ منّا مُستَثنى. نحن جميعًا سنَموت، البعضُ سيَموتون وهم مسنُّون، والبعض في سنٍّ صغيرةٍ بصورة مأساويّة. أجل، إنَّ الله يقدّمُ الدّعمَ والتّضامُنَ، لكنْ ليس الحماية- على الأقلّ ليس ذلك النّوعَ من الحماية التي نتحرّقُ شَوقًا إليها. على هذا الكَوكَب الملعون، عانى حتّى الله فقدانَ ابنٍ.

أيّها الموت! لا تفتخر بما صنعت

في فيلم "أراضي الظّلال" (Shadowlands)، الذي يستند إلى حياةِ سي. أس. لويس، تتمتّع زوجتُه بفترةٍ قصيرةٍ من خمودِ حدّةِ نَوباتِ السرطان الموجِعة. ويتمتّعُ الاثنان برحلةٍ رومانسيّةٍ إلى اليونان، فترةٍ فاصلةٍ من النّعمة الخلّابة. قالت جوي (Joy) وهي مدركةٌ لما سيَحدُثُ في المستقبل حالما يحتدمُ مرض السرطان: "إنَّ الألمَ الذي سأشعرُ به في ذلك الوقتِ هو جزءٌ من السعادة التي أشعرُ بها الآن. تلك هي الصفقة".

بعد فترةٍ ليسَتْ بالطويلة، توُفّيَت جوي. وفي أحَدِ المشاهد الأخيرة، يحاولُ لِويس أن يُعزّيَ ابنَها الشابّ، الذي صارَ يتيمَ الأمّ. تشبَّثَ لِويس بالإيمان بالسماء كما يتعلّقُ الشخصُ الذي يغرقُ بطَوقِ النّجاة، أو ربّما مثل الجائع الذي يحلمُ بالطعام. أجرى تغييرًا بارعًا في كلماتِ جوي! "إنّ الألم الذي أشعر به الآن هو جزءٌ من السعادة التي سأشعرُ بها في ذلك الوقت. تلك هي الصفقة".

لم يكُنِ الرسولُ بولس غَريبًا على المعاناة. راهَنَ بإيمانه على ضرورةِ أن يشفيَ الله العالم ويُعيدَه إلى وضعه، وهذا هو الحلُّ الوحيد الذي يمكنُ أن يجلبَ العدالةَ لكَوكَبٍ منحرفٍ إلى أبعَدِ حَدّ. شملَ تاريخُ حياة بولسَ الضّربَ والسجنَ ولَدغَ الأفاعي والغرق، لكنَّه مع ذلك احتملَها بفَرحٍ على رجاء رَوعة المستقبل: "لأنَّ خِفَّةَ ضيقتنا الوقتيَّة تُنشئ لنا أكثرَ فأكثر ثِقْلَ مَجدٍ أبديًّا"[٢٤]. ويذهبُ الرسول إلى أبعدَ من ذلك ليعترفَ بصراحةٍ أنّه دون القيامة فإنَّ كرازتَه وإيمانَه باطلان. ثمَّ أعلنَ بوُضوحٍ بلمسةِ حزن: "إنْ كان لنا في هذه الحياة فقط رجاءٌ في المسيح فإنّنا أشقى جميع الناس"[٢٥].

تَلوتُ على أفراد مجتمع نيوتاون قصيدةً لفريدريك راكيت (Friedrich Rucket)[٢٦]، وهو كاتبٌ ألمانيٌّ كتبَ بعدَ أن فقدَ طفلَيه بمرضِ الحمّى القرمزيَّة ٤٢٨ قصيدةً في ذروة الحزن. وضعَ المؤلّف غوستاف ماهلر (Gustaf Mahler) ألحانًا لخمسٍ منها في "أغاني حول موت أطفال" (Kindertotenlieder) تبدأ إحداها بما يلي: "تريدُ الشمسُ الآن أن تشرقَ بنُورٍ ساطعٍ كما لو أنَّ شيئًا رهيبًا لم يحدُثْ في أثناء الليل". هل تجرؤ الشمسَ على الشروق عبر ضبابِ اليأس المظلم؟

تنتهي آخرُ أغاني ماهلر، التي تذكّر بساندي هوك بصورةٍ مزعجة، بالأمل نفسِه الذي جلبَ العزاءَ لأمّ ثكلى.

في هذا الجوّ، في هذه الرياح العاصفة
ما كنتُ لأدعَ الأطفالَ يخرجون بتاتًا.
لقد أخذَتْهمُ الرياح،
لم أكُنْ قادرًا على تحذيرهم!...

في هذا الجوّ، في هذه العاصفة
ما كنتُ لأدعَ الأطفالَ يخرجون البتّة
كنتُ جزِعًا من أن يموتوا في اليوم التالي
صارَ قلقي الآن دون معنى.

في هذا الجوّ، في هذه الرياح العاصفة
ما كنتُ لأُرسلَ الأطفال إلى الخارج
لقد أخذَتهم الرياح
لم أكُنْ قادرًا على تحذيرهم!

في هذا الجوّ، في هذه الرياح العاصفة، في هذا الجوّ العاصف
يستريحون كما لو كانوا في بيت أمِّهم،
لا يخشَون أيّة رياح؛
فَهُم آمنون في يَدِ الله.

نشأتُ بين مسيحيّين يركّزون كثيرًا على الحياة بعدَ الموت، كما لو أنَّ هذه الحياة كانَتْ نوعًا من حالةِ ما قبل الموت التي علينا أن نعبرَها في طريقنا إلى "أرض بَعولة" مع الشكر للّاهوتيّين مثل يورغن مولتمان (Jürgen Moltmann) وأن. تي. رايت (N.T. Wright) الذين ساعدوا على تصحيح عدم التوازن هذا

بالتّشديد على الرابط ما بين حالتنا الحاضرة والمستقبليّة. لكنّي تعلّمتُ أيضًا، لا سيّما من الحادثة التي جعلَتْني أواجهُ الموتَ وَجْهًا لوجه، بأنّي لا أستطيعُ أن أتجرّأَ على أن أختارَ الاتّجاهَ الآخر، مركّزًا على هذه الحياة فقط. أحتاجُ إلى ما يذكّرني بِوَعد الله لشِفاءِ الخليقة مرّة وإلى الأبد من العدوّين: الشرّ والموت. بخلاف ذلك، أيُّ أملٍ لأيٍّ منّا؟

كانت لأيّوبُ النظرة الصحيحة وسط بؤسه، عندما كان يفكّر في إمكانيّة الانقراض: "إذا رجوتُ الهاوية بيتًا لي، وفي الظلام مهّدتُ فراشي، وقلتُ للقبر أنت أبي وللدُّود أمّي وأختي، فأين إذًا آمالي؟ آمالي. مَن يعاينُها؟". [٢٧]

عندما كنتُ أضعُ كتابَ "أين الله عندما أتألّم"، لاحظتُ تفصيلًا في نهاية سفر أيّوب كان يغيبُ دائمًا عن ناظري. بعد أنِ اجتازَ أيّوب فترةَ تجربته، يسجّلُ الكاتب أنَّ الله أعادَ إليه بالتّفصيل ضعفَ ما كان قد فقدَه: ١٤,٠٠٠ من الغنم بدل ٧,٠٠٠؛ ٦,٠٠٠ من الإبل بدل ٣,٠٠٠؛ ١,٠٠٠ فدّان من البقر و١,٠٠٠ أتانٍ بدل ٥٠٠. ولكنْ كان هناك استثناءٌ واحد: فقدَ أيّوبُ سبعةَ أبناءٍ وثلاثَ بنات، وفي عمليّة استعادةِ ما فَقَد، حصلَ على سبعةِ أبناءٍ وثلاث بنات- أي العددِ نفسِه كما كان من قبل، وليس الضعف. لا يمكن استبدالُ كائنٍ بشريٍّ بآخر كما تُستَبدَل الأغنام والإبل. حتّى هذه القصّة القديمة التي كُتبَتْ قبل الإعلان عن السماء والحياة الأبديّة، تتضمّن مفاتيحَ قيامةٍ مستقبليّة. سيَنالُ أيّوبُ يَومًا ما الضّعف عندما ينضمُّ إلى أولاده العشرة الأوائل ويعرّفهم إلى العشرة الذين أتَوا بعدَهُم.

عندما كنتُ أتجوّلُ في اليابان في المنطقة التي دمَّرها التسونامي، زرتُ مدرسةً متوسّطةً حيث هلكَ أكثرُ من مئة طفل. هناك عرضَ مضيفي، وهو يرفع جهاز آي

باد (iPad)، مقطعَ ڤيديو من اليوتيوب (YouTube) لجدار المياه الذي صدمَ الموقع الذي كنّا نقفُ فيه. كانت علامةُ المياه المرتفعة مرئيّةً بشكلٍ واضحٍ في غُرفِ صفِّ الطابَق الثاني. تُوُفِّيَ العديدُ من الأطفال على درجٍ بينما كانوا يتسلّقون بصُعوبةٍ باتّجاه الطابَق الأعلى. بعدَ ذلك بِعام، كانت الأُمّهاتُ اليابانيّاتُ لا يَزَلْنَ يَزُرنَ تلك المدرسةَ كلَّ يَوم، حيث إنَّ كلَّ قطعةٍ من الحُطام الذي جرفَتْه المياهُ إلى الشاطئ صُنِّفَتْ بدِقّةٍ ووُضِعَتْ في الصناديق التي تملأُ ساحةَ صالةِ الألعاب الرياضيّة في المدرسة. كانت الأُمّهات يفتِّشنَ الأغراضَ في كلِّ صندوقٍ وهنَّ يبحَثْنَ عن بقايا تذكِّرهنَّ بأطفالهنَّ: صندوق الطعام، قلم حبر، صورة، ميداليّة أو كأس، ورقة مدرسيّة، لعبة محشوّة.

إنّنا نحتفظُ بِمَنْ نحبُّهم أحياء في ذاكرتنا. إنَّ كلَّ ماراثون في بوسطن سيَذكُرُ بتَقديرٍ وإجلالٍ الذين قُتِلوا وجُرِحوا عام ٢٠١٣م. ويعرضُ النُّصبُ التذكاريُّ لمركَز التجارة العالميّ اسمَ كلِّ شخصٍ تُوُفّي، وسيحتفظُ أهالي نيوتاون بغرفةِ طفلهم كما كانت عام ٢٠١٢م، وسيَحتفظون جميعُهم بقِطَعٍ للذّكرى- صُوَرٍ، أفلامِ ڤيديو، ألعابٍ مفضّلة. نحن نثقُ بأنَّ لدى الله المهيمن القدرةَ على فعلِ أكثرَ من هذا: ليس فقط أن يبقَوا أحياء في الذاكرة بل أن يَقوموا ثانيةً- أن يعيدَ إلى حياةٍ جديدةٍ الأشخاصَ الحقيقيّين مثل إميلي ودون ودانيال وشارلوت ويوسف وكاثرين وجاك وديلان ولورن وكلّ الآخرين.

نرنّمُ في عيد الميلاد "يا بيت لحم الصغيرة" (O Little Town of Bethlehem) التي تتضمّن هذه العبارة: "رُغمَ ذلك، يشعُّ في شوارعك المظلمة نورٌ أبديّ. إنّ آمالَ السنوات ومخاوفَها التقَتْ جميعًا معًا فيك الليلة". مع أنَّ الشرَّ والموتَ لا يزالان يسودان على هذا الكَوكَب المشوّه والعنيف، فإنَّ الحدثَ الذي يُحتَفَل بذكراه في جميع أنحاء العالم بعد وقتٍ قصيرٍ من إطلاق النار في ساندي

هوك يمثّلُ أفضلَ أملٍ حقيقيٍّ لنا. دخلَ يسوعُ هذا العالم في أوقاتٍ يائسةٍ ومُفجعةٍ ليُبيِّنَ الطريقَ إلى الجانب الآخر. يوضحُ سِفرُ الرؤيا كيف سيكون ذلك الجانب: "وسيمسح الله كلَّ دمعةٍ من عيونهم، والموت لا يكون في ما بعد، ولا يكون حزنٌ ولا صراخ ولا وجع في ما بعد، لأنَّ الأمورَ الأولى قد مضت... ها أنا أصنعُ كلَّ شيءٍ جديدًا".[٢٨]

بعد القيامة، وبينما كان الإنجيلُ ينتشرُ في أرجاء الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، استمرَّ مَوتُ المسيحيِّين الأوائل، بالتَّأكيد مثل كلِّ إنسانٍ على هذا الكَوكَب الساقط. لكنْ بالتَّدريج أُخضعَ الموتُ وكُسِرتْ شوكتُه. وانتقلَتْ أماكنُ دَفْنِ الموتى من أضرحةِ الوثنيِّين ومدافنهم على مشارف القرى إلى المقابر- التي تعني حرفيًّا "أمكنة الرُّقاد"- في ساحاتِ كنائسِ الأبرشيَّة. كان هذا الانتقالُ أكثرَ من رمزيٍّ؛ حيثُ إنَّه عبَّر عن إيمانٍ عميقٍ بوَعدِ قيامة الجسد.

دفَنَ جون دون (John Donne)[٢٩]، عميدُ كاتدرائيَّة القدّيس بولس، المئاتِ في أثناء أسوأ سنواتِ الطاعون الدمَّليِّ في القرن السابع عشر في لندن. عندما اعتقدَ أنَّه أُصيب بعَدوى قاتلة، كتبَ هذا الإعلان المتحدِّي:

لا تفتَخرْ أيُّها الموت! مع أنَّ البعضَ قد دعاك
جبَّارًا ومخيفًا؛ لأنَّك لستَ كذلك...

رقادٌ واحدٌ قصيرٌ يعبُرُ ثمَّ نستيقظ إلى الأبد
ولن يكونَ بعدَ ذلك مَوت، ستَموتُ أيُّها الموت.

إنَّ مَوت الموتِ هو الرسالةُ التي ينبغي لبلدة نيوتاون كما للعالم أن يسمعاها ثانيةً.

الجزء الخامس

ثلاثة اختباراتٍ متطرِّفة

لدى سورين كيركيغارد (Soren Kierkegaard)[1] حكايةٌ رمزيّةٌ عن رجلٍ وضعَ كتابًا عن الله المُحبّ والجديرِ بالثّقة الذي يضمنُ أنّ كلّ الأشياء تعمَلُ معًا للخَير. ثمّ وقعَتْ مُصيبةٌ شخصيّةٌ جعلَتْ كلّ ما كان يؤمنُ به مَثارًا للشّك. أين الله الإلهُ المحبُّ في وقتٍ كهذا؟ بحثَ الكاتب، وهو في حالةِ ذُهول، عن واعظٍ لا يعرفُه، وسردَ له قصّته. فيما كان الواعظُ يُصغي، أدركَ أنْ ليسَتْ لديه أَجوبةٌ مُرضيَةٌ يقدّمُها إلى الشخص الذي يُرشِدُه. فأوصى بكتابٍ معيّن عن محبّة الله. أجاب الرجل: "أنا مؤلّفُ هذا الكتاب".

أشعرُ بعضَ الشيء كما شعرَ المؤلّفُ في قصّة كيركيغارد الرمزيّة بينما أضعُ هذا الكتاب. منذُ سنوات، إذ كنتُ كاتبًا صغيرًا ومؤمنًا ملتزمًا جديدًا، بحثتُ في السؤال: "أين الله عندما أتألّم؟"، والآن يلجأ الناس إليّ للحصول على إجاباتٍ ويطلبون منّي أن أتكلّمَ عن مواضيعَ كبيرةٍ تدورُ حول أحداثٍ مأساويّة. لكنّ السؤالَ لا يغيبُ- لا يغيبُ عن فكري ولا عن فكر أيّ شخصٍ آخر. إنّنا نتلمّسُ طريقَنا باستمرارٍ نحو النُّور بينما نعيشُ في الظُّلمة.

واجهتُ السؤالَ ثانيةً ثلاثَ مرّاتٍ حاسمة في عام ٢٠١٢م في ثلاثِ قارّاتٍ مختلفة، وفي عام ٢٠١٣م حدثَتْ سلسلةٌ من المآسي الجديدة جعلَتِ السؤالَ أكثر إلحاحًا. لا يمكنُ لهذه التأمُّلات بأيَّةِ حالٍ من الأحوال أن "تحلَّ" مشكلةَ الألم أو حتَّى أن تبدأ في معالجةِ قضايا أُخرى يواجِهُها الذين يعانون. مع ذلك أتمسَّكُ بإيماني بأنَّه بالنسبة إلى هذا السؤال "أين الله؟"، فإنَّ الكتابَ المقدَّس يُسلِّطُ الضَّوءَ عليه.

يتركَّزُ الجوابُ الأوَّل على الحدث الذي نحتفلُ به في عيد الميلاد، وهو موسمٌ ملطَّخٌ بمأساةِ ساندي هوك. بسبب يسوع، الذي يصِفُه العهد الجديد بأنَّه "صورة الله غير المنظور"[٢]، أستطيعُ القَولَ بكلِّ ثقةٍ إنَّ الله إلى جانب المتألِّم. هل هذا حتَّى في اليابان، حيثُ قلَّةٌ من الناس تؤمن بالله؟ حتَّى في سراييفو، حيثُ الدِّينُ هو المصدرُ الرئيسيُّ لكلِّ العداوات؟ أجل! ما عليَّ إلَّا أن ألحَظَ كيف كان ردُّ فعل يسوعَ تُجاهَ السامريِّين (الذين كان يُنظَرُ إليهم بوصفهم هراطقةً في عصره) أو تُجاهَ الرومان الوثنيِّين مع أفراد أُسرتِهم المرضى.

أجرَيتُ منذ عدَّةِ سنوات مقابَلةً مع دايم سيسيلي سوندَرز (Dame Cicely Saunders)، التي أسَّستْ حركةَ مراكز المحتَضَرين الجديدة، والتي أحيَت أكثرَ من أيِّ شخصٍ آخرَ مفهومَ العصور الوسطى "مَوتٌ جيِّد" (A Good Death). لقد شاهَدَتْ من المعاناة في يَومٍ واحدٍ أكثرَ ممَّا شاهدَه معظمُنا في حياتِه كلِّها. طرحْتُ على سوندرز السؤالَ "أين الله؟"، وكان جوابُها: "لا يمنعُ الله وُقوعَ الأمور الصعبة في هذا العالم الحرِّ والخَطِر، لكنَّه بدلًا من هذا، يشاركُنا جميعًا في هذه الأمور". ولأنَّ الله شارَكَنا معاناتَنا في شخصِ يسوع، صارَ لدينا، نحن أتباعَه، أُنموذجًا لافتدائها- طريقةً لاستخلاص الخير ممَّا يبدو للوهلة الأولى أنَّه من السوء بحيثُ لا يمكنُ علاجُه أو إصلاحُه.

بالنّسبة إلى التلاميذ الذين خابَ أملُهم، والذين كانوا يراقِبون الجنودَ الرومانَ يسمِّرون الابنَ على الصليب، لا بدَّ أنَّ الله الأب بدا عاجِزًا وغير مُكتَرث. حتّى يسوع أحسَّ بشعورٍ حادٍّ أنّه هُجِر. سمعتُ أشخاصًا يَصِفون مشاعرَ مشابهةً من الارتباك والخيانة والعَجْز في سراييفو ونيوتاون على حدٍّ سواء. ألا يهتمُّ الله؟ كيف يمكنُ أن يسمَحَ الله بشيءٍ من هذا القبيل؟ إذا نظَرْنا إلى ذلك اليوم في الجلجثة، يبرزُ أنموذجٌ أمامنا عن الله الذي يحوِّلُ هزيمةً ظاهرةً إلى نصرٍ حاسم. لم يسيطر الله على حرِّيّة الإنسان ولم يمنَعِ الشرَّ من الحدوث. بدلًا من ذلك، ما قصدَ به البعضُ شرًّا، جعلَه الله خَيرًا.

يعكسُ جوابي الثاني ما عايَنتُه في الأمكنة التي زرتُها. أين الله عندما أتألَّم؟ الله الآن في الكنيسة التي تمثِّلُ حُضورَ الله على الأرض. يمكنُ إعادةُ كتابةِ نصِّ السؤال كما يلي: "أين الكنيسة عندما أتألَّم؟". في اليابان، قابلتُ عمّالًا كانوا قد سافَروا حول نصف العالم ليُعيدوا بناءَ منازلَ دُمِّرت في التسونامي. وفي سراييفو أقمتُ مع الرهبان الفرنسيسكان الذين ظلُّوا في مواقعهم ليَخدِموا الفقراءَ ويعمَلوا لأجل السلام لفترةٍ طويلةٍ بعد أن هربَ معظمُ المسيحيِّين الآخرين من المدينة. وفي نيوتاون أسَّسَتْ كنيسةُ وولنات هِل صندوقًا احتياطيًّا للاحتياجات المستقبليّة، مثل تقديم المشورة طويلةِ الأمد إلى الأطفال الناجين. قال لي القسُّ كلايف كالفر: "لن نذهبَ إلى أيِّ مكان. كنيستُنا ملتزمةٌ على المدى الطويل".

لن يشفيَ الوقتُ كلَّ الجراح. حتّى الله لن يشفيَ الجروحَ كلَّها، على الأقلّ ليس في هذه الحياة. خلال ذلك، يكونُ لدينا نحن الذين في الكنيسة عملٌ نقوم به. لدى البعض مواهبُ خاصّة: الإرشاد، المساعدة الطبّيّة، بناءُ البيوت، إضافةً إلى طُرُقٍ مساعدةٍ عمليّةٍ أُخرى. نملكُ جميعًا قوّةَ المحبّة. إنَّ

المعاناةَ تعزلُ، وتُسيء إلى النظرة إلى الذات، وتُدمِّر الأمل- ويمكنُ للحُضور الملاَن بالمحبَّة أن يتغلَّبَ على هذه العناصر الثلاثة. وكما كتبَتْ مورين دود (Maureen Dowd)[٣] في نيويورك تايمز بعد ساندي هوك:

> لا أتوقَّعُ أن يأتيَ العزاءُ من بعيد، حيثُ أومن في الحقيقة بأنَّ الله يدخُلُ العالمَ من خلالنا. ومع أنَّه لا تزالُ لديَّ أسئلة "لماذا؟"، فإنَّها ليسَتْ إلى حدٍّ كبيرٍ أسئلةَ "لماذا يا الله؟". نحن بشر والبشر فانون. سنُعاني ونموت. غير أنَّ الكيفيَّة التي تكونُ بها حياتُنا بعضُنا مع بعضٍ في تلك المعاناة وذلك الموت هي ما يؤثِّر حقًّا في ما يتعلَّقُ بمسألة شعور الآخرين بحضور الله أم عدم شعورهم به، وإنْ كنَّا قد نِلْنا التعزية أم لا... إنَّ ما أعرفُه جيِّدًا هو أنَّ الحضورَ الملآنَ بالمحبَّة غير المشروطة يُخفِّفُ ألمَ القلوب المحطَّمة، ويضمِّد الجراحَ ويجدِّدُنا في الحياة.

إذا قامَتِ الكنيسةُ بعمَلِها، فلن يعذِّبَ الناسُ أنفسَهم متسائلين أين الله. إنَّهم يعرفون الجواب. يصيرُ الله مرئيًّا عبر أشخاصٍ يعيشون الرسالةَ التي عبَّر عنها بولس جيِّدًا: "مباركٌ الله أبو ربِّنا يسوع المسيح أبو الرأفة وإلهُ كلِّ تعزيةٍ الذي يعزِّينا في كلِّ ضيقنا حتَّى نستطيعَ أن نعزِّيَ الذين هم في كلِّ ضيقةٍ بالتَّعزية التي نتعزَّى نحن بها من الله"[٤].

يتوقَّفُ الجوابُ الأخيرُ عن السؤال على تعهُّدِ الله بتَجديدٍ وإحياءٍ مستقبليّ. الله يُعدُّ لنا منزلًا جديدًا. قال يسوعُ للتّلاميذ وهو يُهيِّئهم لمواجهة أحزانهم الخاصَّة: "أنا أمضي لأُعدَّ لكم مكانًا"[٥]. وقدَّم بعضَ التفاصيل، وبالنِّسبة إليَّ أنا مسرورٌ من هذا. لم أكُنْ قادرًا قَطُّ على تصوُّر أو تخيُّل ما ستكون عليه تلك

الحالة في المستقبل. إنّها أيضًا تتجاوزُ القدرةَ على الفهم. بدلًا من ذلك، طلبَ منّا يسوعُ أن نثقَ به. وإذا كان يسوعُ قد ضُلّل بشأن منزلنا المستقبليّ، إذًا نكون نحن أتباعَه المخدوعين أكثرَ الناس مَدعاةً للشّفقة، وسيتردَّدُ صدى كلماتِ الشكوى في أيّوب والمزامير والأنبياء من خلال كَونٍ لا معنى له إلى الأبد.

أصابَ القلقُ أحَدَ المعلّقين لاعتقاده أنّ نيوتاون "أفسَدَتْ" عيدَ الميلاد إلى الأبد، كما أنّ كلّيّة ڤيرجينيا للتكنولوجيا وكولومبين قد أفسَدَتا عيدَ الفصح- لكنْ فقط إذا احتُفِلَ بهما بوصفهما عُطلًا بدلَ كَونهما أحداثًا حقيقيّةً، نذيرَين بخُطّةِ الله لإنقاذ كَوكبٍ محطَّم. مع هذا، لديَّ حَدْسٌ أنّ أهاليَ نيوتاون الذين سيَختَبِرون عيدَ الميلاد إلى الأبد بوصفه فصلَ الأحزان، سيركّزون أنظارَهم بشكلٍ متزايد على عيد الفصح.

مرّةً أخرى، يقدّمُ أسبوعُ الآلام (الأسبوع الذي يسبِقُ الفصح) أنموذجًا للمعاناة. في يوم الجمعة العظيمة تلقّى يسوعُ أسوأ ما يمكنُ للأرض أن تقدّمه. اتّحد العدوّان القديمان، الشرُّ والموت، للقيام بعملِ ظُلم عميق. لكنّ عيدَ الفصح قدّم علامةً مؤكّدةً لا رَيبَ فيها للتّناقُض مُبرهِنًا على أنْ لا شيءَ يمكنُ أن يصمدَ أمامَ قوّةِ الشفاء لإله مُحبّ. إنّ فداحةَ ما حصل- بل أكثر من ذلك، حقيقةَ ما حصل- لم تتّضحْ لتلاميذ يسوع سوى بالتّدريج، في إشاراتٍ صغيرةٍ ووثيقة: السير على الطريق، كسرُ الخبز، شيُّ السمك. ومع أنّ القيامةَ لم تُغيّر في البداية كثيرًا في نمطِ حياتهم اليوميّة، فإنّها قدّمتْ طريقةً جديدةً كاملةً للنّظر إلى العالم، مصدّقةً على الرجاء بأنّ كلّ شيءٍ سيتغيّر ذاتَ يَوم. سرعانَ ما ستنطلقُ تلك المجموعةُ المتجدّدةُ النشاط إلى الشوارع للكرازة بالأخبار السّارّة المذهلة- أخبارٍ سارّةٍ أكثرَ ممّا ينبغي، لذا يجبُ أن تكونَ حقيقيّةً.

بعد ألفَي سنة، نعيشُ حياتَنا كما لو كنَّا في السبت المقدَّس، اليوم ما بين الحادثتَين. ننظر إلى الوراء إلى الجمعة العظيمة وعلامتها الواضحة هي أنَّه يمكنُ افتداءُ أيَّة معاناة؛ وننظرُ إلى الأمام بشَوقٍ لا يرتَوي إلى خليقةٍ جُعِلَتْ جديدة. وفي غضون ذلك، نحن معلَّقون لا نحصلُ على علاجٍ للمعاناة بل على استخدامٍ لها، على أُنموذجٍ للمَعنى. وكما قال تيري ويت (Terry Waite)[٦] بعدَما أُطلِقَ سراحُه بعد أربع سنوات من الأَسْر رهينةً في لبنان: "قرَّرتُ في أسري، ولا أزال مصمِّمًا على ذلك، أن أُحوِّل هذه التَّجربةَ إلى شيءٍ مفيدٍ وصالح لأشخاصٍ آخرين. أعتقدُ أنَّ هذه هي أفضلُ طريقةٍ للتَّعامُل مع المعاناة. يبدو لي أنَّ المسيحيَّةَ لا تُخفِّفُ بأيَّةِ طريقةٍ من وطأةِ المعاناة. إنَّ ما تفعلُه هو أنَّها تُمكِّنك من قبولها ومواجَهتِها والعمل من خلالها، وتمكِّنُكَ في نهاية المطاف من تحويلها".

الله فقط يستطيعُ أن يقدِّمَ حلًّا لمشكلة المعاناة التي اختَبَرْتُها بكلِّ وُضوحٍ في اليابان وسراييڤو ونيوتاون. كانَ الشاعرُ جورج هيربرت يتوقُ إلى اليوم "الذي سنَرى فيه محبَّتكَ الكاملة، عندما ستنظرُ إلينا من الألم"[٧]. وإلى أن يحينَ ذلك الوقت، نتمسَّكُ بالوَعد القائل إنَّ إلهَ كلِّ تعزيةٍ لم يهجُرْنا لكنَّه يستمرُّ في عمله البطيء والثابت ليُعيدَ إلى حالته ما أفسدَه الشرُّ والموت.

بعد إطلاق النار في ساندي هوك مباشرةً، أرسلَ إليَّ صديقٌ ألمانيٌّ فِقرةً من أحَدِ مؤلَّفات ديتريش بونهويفر. كتبَ زميلُ غرفتي من أيَّام الجامعة: "وجدتُ هذه في آخر كتابِ الترانيم في الكنيسة. ترجمتُها وأرسلتها إليك. إنَّها مفيدةٌ في يَومٍ كهذا". سُجِنَ بونهويفر، وهو قسٌّ ولاهوتيّ، في معسكرِ اعتقالٍ عقابًا له على مقاوَمَته النِّظامَ النازيّ:

أومنُ بأنَّ الله قادرٌ على استخراج الخير من كلِّ شيء، حتَّى من أسوأ الشرور. لذا، هو يحتاجُ إلى أشخاصٍ يسمَحون لكلِّ ما يحدُثُ أن يتلاءمَ مع أنموذجٍ للخَير.

أومنُ بأنَّ الله سيُعطينا في كلِّ حالةٍ طارئةٍ قَدْرَ ما نحتاجُ إليه من قوَّةٍ للمُقاوَمة. لكنَّه لن يمنَحنا هذا مسبَّقًا لئلَّا نعتمدَ على أنفسنا بل نعتمدَ عليه وحدَه. من خلال إيمانٍ كهذا، يمكنُ التغلُّبُ على كلِّ قلقٍ بشأن المستقبل.

أومنُ بأنَّ أخطاءنا وضعفاتِنا حتَّى ليست عَبَثًا، وأنَّ تعامُل الله بفاعليَّةٍ معها ليس أصعبَ من التعامُل مع أعمالنا الصالحة المفتَرَضة.

أومنُ بأنَّ الله ليس مصيرًا أبديًّا، لكنَّه ينتظرُ الصلواتِ الصادقةَ والعملَ المسؤول، ويتَجاوَبُ معهما.

كتَبَ بونهويفر هذه العقيدةَ قبل فترةٍ وجيزة من إعدامه على يَدِ البوليس السرِّيِّ النازيِّ، الذي حدثَ قبلَ ثلاثةٍ وعشرين يَومًا من استِسلام ألمانيا. قال بونهويفر إنَّ الموتَ هو الاحتفالُ الأسمى على طريق الحرِّيَّة. إنْ كان على خطأ، فقد ضاعَ كلُّ شيء. وإنْ كان على صواب، فليسَتْ هذه سوى البداية.

شكرٌ وتقدير

يَبرزُ هذا الكتابُ من أسئلةٍ أُثيرت في ثلاثةِ أمكنةٍ مأساويَّةٍ زرتُها عام ٢٠١٢م. سرعانَ ما حدثَتْ سلسلةٌ جديدةٌ من الكوارث في الشهور القليلة الأولى من عام ٢٠١٣م: تفجيرات ماراثون بوسطن، انفجار مصنع للأسمدة الكيماويَّة في تكساس، زلزال في الصين، انهيار مبنى في بنغلادش، أعاصير مميتة في أوكلاهوما. إنَّ السؤالَ حول سبب حدوث هذه الأمور، والكيفيَّة التي يمكن أن يشاركَ الله فيها، هو سؤالٌ لا يغيبُ عن الفكر. ودليلًا على هذا، في كلِّ مرَّةٍ أكتبُ فيها عن الموضوع على موقعي أو على حسابي على الفيسبوك (Facebook)، يتجاوَبُ معي آلافُ القرَّاء الجُدد.

قبل أيِّ شيء آخر، أنا شاكرٌ للأشخاص في اليابان وسرايفو ونيوتاون، الذين كَشَفوا لي عن ألمهم العميق، آملين أنَّ ما تعلَّموه قد يجلبُ الراحةَ والتعزيةَ إلى الآخرين خلال تلك الأوقات.

جعلَ أصدقائي وزملائي في مؤسَّسة كرييتف ترست (Creative Trust) هذا الكتابَ مُتاحًا في شكله الإلكترونيِّ بدلًا من انتظار البرنامج البطيء لنشرِه تقليديًّا. أنا شاكرٌ بشكلٍ خاصٍّ لكاثرين هيلمرز (Kathryn Helmers) ودَنيس جورج (Denise George)، ولورا كانبي (Laura Canby) وجواني

بارت (Joannie Barth) اللواتي ساعَدْنَ في الأمور اللوجستيَّة الخاصَّة بالبُحوث والتَّصميم.

سيصدُرُ هذا الكتاب في نسخةٍ مطبوعةٍ في الشهور المقبلة. في غضون ذلك، هذه هي تأمُّلاتي في الأسئلة القديمة قِدَمَ التاريخ، والحاضرة مثل مَوقع إخباريٍّ اليَوم.

المصادر

الجزء ٢: "أريدُ أن أعرفَ السبب"

1. MacDonald: Heather McDonald, "Send a Message to God: He has gone too far this time," Slate Magazine (10 Jan. 2005), (http://slate.msn.com/id/2112083/.

2. Lewis: C. S. Lewis, *The Problem of Pain* (New York, NY: Macmillan Co., 1962), 116.

3. Hart: David Bentley Hart, *The Doors of the Sea: Where Was God in the Tsunami?* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2011), 15.

٤. "يا سيِّدي": قضاة ٦: ١٣

٥. "ها إنِّي أصرخ": أيُّوب ١٩: ٧

٦. "استيقظ": مزمور ٤٤: ٢٣

٧. "باطلُ الأباطيل": جامعة ١: ٢

٨. "حقًّا أنت": إشعياء ٤٥: ١٥

٩. "لماذا تكون؟": إرميا ١٤: ٩

١٠. "إلهي إلهي": متَّى ٢٧: ٤٦

11. Lamott: Anne Lamott, *Help, Thanks, Wow* (New York, NY: Penguin Books, 2012), 6-7.

12. Buechner: Frederick Buechner, *Wishful Thinking* (San Francisco, CA: Harper & Row, 1973), 46.

١٣. "العدوُ الأخير": ١كورنثوس ١٥: ٢٦

١٤. "هأنذا": رؤيا ٢١: ٥

١٥. "خيرٌ لكم": يوحنَّا ١٦: ٧

١٦. "لا أتكلَّم": يوحنَّا ١٤: ٣٠

١٧. "وتتمخَّض": رومية ٨: ٢٢

١٨. "الخليقة نفسها": رومية ٨: ٢١

١٩. "مَن أخطأ": يوحنَّا ٩: ٢

20. Lewis: C. S. Lewis, *The Problem of Pain* (New York: Macmillan Co., 1962), 116.

21. Rilke: Rainer Maria Rilke, *Letters to a Young Poet* (Novato, CA: New World Library, 2000), 74.

22. Frankl: Victor Frankl, *Man's Search for Meaning* (New York: Touchstone Books, 1984), 115, 75.

23. Mead: Dr. Paul Brand and Philip Yancey, *The Gift of Pain* (Grand Rapids, MI: Zondervan, 1993), 274-275.

24. retired psychologist: http://usnews.nbcnewa.com/_news/2013/01/15/16529522-grandfather-who-comforted-sandy-hook-elementary-kids-says-truthers-are-targeting-him?lite.

25. touching gestures: http://blog.pe.com/schools/2013/01/21/sandy-hook-shooting- update-on-the-handmade-snowflake-drive/.

26. *"The presence of"*: University of Wisconsin Center for the Study of Pain, quoted in Peter Grieg God on Mute (Eastbourne, England: David C. Cook/Kingsway, 2007), 275.

27. Lutheran bishop: Martin Marty, *A Cry of Absence* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1997), 180.

٢٨. "فإنْ كان عضوٌ واحدٌ يتألَّم": ١كورنثوس ١٢: ٢٦

٢٩. "اصنعوا هذا لذكري": لوقا ٢٢: ١٩

٣٠. "اذكرْ": أيّوب ٤: ٧

٣١. "لتكن مشيئتك": متّى ٦: ١٠

٣٢. "كلُّ الأشياء تعمل معًا": رومية ٨: ٢٨

33. Joe Berti: http://bigstory.ap.org/article/marathon-runner-witnesses-double- disasters.

34. Hart: David Bentley Hart, *The Doors of the Sea: Where Was God in the Tsunami?* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2011), 103-4.

35. Marks: John Marks, *Reasons to Believe: One Man's Journey among Evangelicals and the Faith he left behind* (New York: HarperCollins, 2009), 167.

الجزء ٣: عندما استغرقَ الله في النَّوم

1. *A joke went around*: Steven Galloway, *The Cellist of Sarajevo* (New York, NY: Riverhead Books, 2008), 70.

2. Miroslav Volf, *Free of Charge: Giving and Forgiving in a Culture Stripped of Grace* (Grand Rapids, MI: Zondervan, 2005), 190-191.

3. Potok: Chaim Potok, *My Name is Asher Lev* (New York: Alfred Knopf, 1972),114.

٤. "تعبتُ من صراخي": مزمور ٦٩: ٣

٥. "إنّه وقت": مزمور ١١٩: ١٢٦

٦. "يا بنت بابل": مزمور ١٣٧: ٨

٧. "لكنْ أُكلّمك": إرميا ١٢: ١

٨. "حتّى متى يا ربّ": حبقّوق ١: ٢

9. Rohr: Richard Rohr, *Job and the Mystery of Suffering* (New York: Crossroad Publishing, 2006), 92.

10. Jewish rabbi; Jerome Groopman, M. D., *The Anatomy of Hope*

(New York: Random House, 2005), 78-79.

١١. "ها العذراء تحبل": إشعياء ٧: ١٤

١٢. "عجيبًا مُشيرًا": إشعياء ٩: ٦

13. Wolterstorff: Nicholas Wolterstorff, *Lament for a Son* (Grand Rapids, MI: William B. Eerdmans 1987).

١٤. "والكلمة صار جسدًا": يوحنا ١: ١٤

15. Bonhoeffer: Dietrich Bonhoeffer, *Letters and Papers from Prison* (Minneapolis, MN: Fortress Press, 2010), 479.

16. Peterson's: Eugene Peterson, *The Message* (NavPress: Colorado Springs: CO, 1993).

١٧. "المجد لله": لوقا ٢: ١٤

18. *"Greatest Single Slaughter"*: J.E. Lendon, "The Roman Siege of Jerusalem," Military History Quarterly, Summer 2005 http://www.preteristarchive.com/Bibliography/2005_lendon_roman-siege.html

١٩. "يا أورشليم، يا أورشليم": لوقا ١٣: ٣٤

20. *Nouwen*: from Sharon Gallagher, *Where Faith Meets Culture: A Radix Magazine Anthology* (Eugene, OR: Cascade Books, 2010), 10-11.

21. Wiman: Christian Wiman, *My Bright Abyss* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2013), 155.

٢٢. "كذلك على الأرض": متّى ٦: ١٠

23. Jones: E. Stanley Jones, *The Way* (Nashville, TN: Abingdon Press, 1946), 232-233.

24. Fox: Michael J. Fox, *Lucky Man* (New York: Hyperion Books, 2005), 5.

٢٥. "بل نفتخر أيضًا": رومية ٥: ٣

26. Sittser: Jerry Sittser, *A Grace Disguised* (Grand Rapids, MI: Zondervan, 1996), 19-21.

27. Final Chapter: Jerry Sittser, *A Grace Revealed* (Grand Rapids, MI: Zondervan, 2012), 260.

28. Willard: Dallas Willard, *The Divine Conspiracy* (San Francisco, CA: HarperSanFrancisco, 1996), 336.

٢٩. "مَن سيَفصِلُنا": رومية ٨: ٣٥

30. Robinson: Marilynne Robinson, in Alfred Corn, ed., *Incarnation* (London: Viking Penguin, 1990), 310-311.

31. Ortberg: John Ortberg, "Don't Waste a Crisis," *in Leadership Journal* (Winter 2011), 37.

32. D'Arcy: Paula D'Arcy, "Is There Life After Death?", in U.S. Catholic (January 2006), 19.

33. *Scottish woman:* quoted in Pete Greig *God on Mute*, (Eastbourne, England: David C. Cook/Kingsway, 2007), 159.

34. *Luther*: Martin Luther, "Colorful Sayings of Colorful Luther," Christian History, No. 34, 27.

الجزء ٤: شفاءُ الشَّرّ

1. Adam Lanza: Cnn.com and numerous articles in the Danbury News Times and Hartford Courant newspapers were helpful in piecing together this timeline. At the time of writing, the official police report had not yet been released, so this timeline is tentative.

2. *One grieving parent*: The New York Times (20 January 2013).

3. *"Those who observe"*: https://www.facebook.com/miroslav.volf.12/posts/463923590321596.

4. "You can protest": Miroslav Volf, *Free of Charge: Giving and For-*

giving in a Culture Stripped of Grace (Grand Rapids, MI: Zondervan, 2005), 229.

5. *Tutu*: Desmond Tutu, *No Future Without Forgiveness*, (New York: Doubleday, 1999), 86.
6. *Dawkins*: Richard Dawkins, *River Out of Eden: A Darwinian View of Life* (New York: BasicBooks, 1996), 133.
7. *Gould*: Stephen Jay Gould, Full House:*The Spread of Excellence from Plato to Darwin* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2011), 18.
8. *Bergman*: Ingmar Bergman, *The Magic Lantern: An Autobiography*, (New York: Viking Penguin Inc., 1988), 204.
9. *Douthat*: Ross Douthat, "The Loss of the Innocents," The New York Times Sunday Review (15 December 15 2012), SR12.
10. *Camus*: Albert Camus, *The Plague* (New York: Vintage Books, 1972), 197.
11. *Tennyson*: Alfred Lord Tennyson, *In Memoriam*: A. H. H. (Boston, MA: MobileReference, 2008, Kindle Edition).
12. *Claypool*: John Claypool, *Tracks of a Fellow Struggler* (Dallas, TX: Word Publishing, 1974), 82-83.
13. *Bonhoeffer*: Dietrich Bonhoeffer, *The Martyred Christian* (New York: Macmillan Publishing, 1983), 183.
14. *Wolterstorff*: Nicholas Wolterstorff, *Lament for a Son* (Grand Rapids, MI: Eerdmans Publishing, 1987), 73.
15. *"Violence is now pervasive"*: Charles *Chaput*: Quoted in Terry Mattingly, http://www.knoxnews.com/news/2012/dec/21/terry-mattingly-why-not- blame-god-for-shootings/?print=1 > Dec 21, 2012).
16. *"God is good"*: Charles *Chaput*, "Advent, Suffering and the Promise of Joy", CatholicPhilly.com (December 19, 2012): catholicphilly.com/2012/12/think-tank/weekly-message-from-archbishop-chaput/advent-suffering-and-the-promise-of-joy/.
17. *Dostoevsky*: Fyodor Dostoevsky, *The Brothers Karamazov* (Garden

City, NY: Nelson Doubleday, N. D.), 226.

18. *"The Word became flesh"*: John 1:14, Eugene H. Peterson, The Message (Colorado Springs, CO: NavPress, 1993), 185.
19. *"A voice is heard"*: Matthew 2:18
20. *Denver Post:* http://www.denverpost.com/news/ci_22243944/connecticut-school- shooting-columbine-survivors-tell-newtown families"ixzz2FtHuynqY.
21. *Murray:* http://abcnews.go.com/International/tennis-star-andy-murray-remembers-dunblane-shooting-massacre/story?id=17995450".UYp66bV-p8E.
22. *Drane:* John Drane, "Was God in Dunblane?" *Baptist Times,* March 21, 1996, 8.
23. *"The only effective antidote"*: *Chaput*, "Advent, Suffering and the Promise of Joy" catholicphilly.com/2012/12/think-tank/weekly-message-from-archbishop-chaput/advent-suffering-and-the-promise-of-joy/.

٢٤. "لأنَّ خفَّة": ٢كورنثوس ٤: ١٧

٢٥. "إنْ كان لنا في هذه الحياة فقط": ١كورنثوس ١٥: ١٩

26. Friedrich Rückert: http://en.wikipedia.org/wiki/Kindertotenlieder.

٢٧. "إذا رجوت الهاوية بيتًا": أيُّوب ١٧: ١٣-١٤

٢٨. "وسيَمسحُ الله كلَّ دمعة": رؤيا ٢١: ٤

29. *Donne;* John Donne, "Death Be Not Proud," *The Complete English Poems* (London: Penguin Books, 1987), 313.

الجزء ٥: ثلاثةُ اختباراتٍ متطرِّفة

1. *Kierkegaard*: Søren Kierkegaard, "The Author of the Proofs," ed.

Thomas C. Oden, *Parables of Kierkegaard* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1978), 35.

٢. "صورة الله غير المنظور": كولوسّي ١: ١٥

3. *Dowd:* Maureen Dowd, "Why, God," The New York Times, Dec 26, 2012, A25.

٤. "مبارك الله": ٢كورنثوس ١: ٣-٤

٥. "أنا أمضي": يوحنّا ١٤: ٢

6. *Waite:* Terry Waite, quoted in *Rediscovering Holiness: Know the Fullness of Life with God*, by J. I. Packer (Ann Arbor, MI, Servant Publications, 1992), 270.

7. *Herbert:* George Herbert, "The Glance," ed. C. A. Patrides, *The English Poems of George Herbert* (Totowa, NJ: Rowman and Littlefield, 1981), 177.



فيليپ يانسي

تربّى فيليپ يانسي في عائلةٍ محافظة من الجنوب الأميركيّ، وكان يميلُ إلى النظر إلى الله على أنّه "شرطيٌّ ساخط يبحثُ عن أيّ شخصٍ يحاول التمتُّع بحياته ليقبضَ عليه". هكذا يُعبّر يانسي عن "تعافيه" من كنيسةٍ أدّت ممارساتُها إلى ترسيخ هذه الصورة الخاطئة عن الله.

وينعكسُ هذا في ما قالَه مرّةً: "أنا أؤلّف كُتبًا لنفسي. أنا حاجٌّ أتعافى من التربية الكنسيّة السيّئة، وأبحثُ عن الإيمان الذي يجعلُ تابعيه أكبر لا أصغر. أشعر بعرفانٍ غامرٍ لتَمكُّني من وَضعِ كتاباتٍ حيّة في ما يتعلّق بالأسئلة التي لطالما أثارت اهتمامي".

للمؤلّف عدّة كتبٍ منشورة، وقد تُرجمَ منها إلى العربيّة من أوفير للطباعة والنشر: "عندما لا تمطر السماء"، و"بالكاد نجوت"، و"النعمة المُغيّبة".

وللمزيد عن هذه الكتب، انظرِ الصفحات التالية.



عندما لا تمطر السماء

(Disappointment with God)

ثلاثة أسئلة لايطرحها أحدٌ جهرًا:

١. هلِ الله ظالم؟
٢. أهو صامت؟
٣. أهو مُختبئ؟

يُجيب يانسي عن هذه الأسئلة بوضوح وصدق ويقينٍ مُستمَدٍّ من الكتاب المقدَّس. وهو يأخذ بأيدينا لتَخطّي خيبات الحياة، وما يمكن أن تُنتِجه من شكوك ولامبالاة وسخرية، إلى إيمانٍ بالله أقوى وأحكم، إلى ثقةٍ بمحبَّة الله الفائقة لنا، وعطشٍ ليس فقط إلى ما يُعطيه الله، بل لمن هو الله في ذاته وصفاته وأفعاله.





بالكاد نجوت

(Soul Survivor)

هذا الكتاب أشبَهُ ما يكونُ بتَكريمٍ وعرفانٍ بالجميل لثلاث عشرة شخصيَّةً استثنائيَّة غيَّرت حياة يانسي وعملَه. بالإضافة إلى سَرْدِ تأثيرهم فيه، يقدِّم يانسي لمحاتٍ حديثةً عن حياةِ كلِّ واحدٍ منهم ورحلة إيمانه. من الصحافيِّ المشتَّت الذِّهن، جي. كاي. تشيسترتون، إلى الروائيَّين المعذَّبَين، ليو تولستوي وفيودور دوستويفسكي، إلى معاصرين مثل د. پول براند وآني ديلارد وفريدريك بوشنر- يقدِّم يانسي صورًا مُلهِمةً لهؤلاء الَّذين قدَّموا إليه نموذجًا لإيمانٍ حيٍّ وحياةٍ مشرقة.



النعمة المُغيَّبة

(Vanishing Grace)

في هذا الكتاب، يستعرض يانسي موضوع النعمة التي غُيِّبت في عصرنا الحاضر إذ يقول: "ينتابني بوصفي مسيحيًّا هاجسٌ عميقٌ يتعلّق بكيفيّة إظهار إيماننا للآخرين. لقد دُعينا لنكرزَ بالأخبار السارّة عن الغفران والرجاء، ومع ذلك أواجِهُ باستمرارٍ أدلّة تبيّن أنّ كثيرًا من الناس لا يحسبون رسالتَنا أخبارًا سارّة".

ورغم ما تشير إليه البحوث بأنّ الآراء الإيجابيّة حول المسيحيّة في انخفاض، فإنّ الاهتمام بالروحانيّات آخذٌ في الارتفاع، فلماذا هذا الانفصام؟ وكيف يستطيع المسيحيّون أن يقدّموا النعمة بطريقةٍ تُثير الانتباه والإعجاب إلى مجتمعٍ مُنهَك؟ وكيف يمكنهم أن يؤثّروا في عالمٍ يصرخ طلبًا للنجاة؟ يجدِّد يانسي نداءَه للمسيحيّين ليكونوا ممتلئين بالنعمة في سلوكهم كما هم في الإعلان عن إيمانهم؛ لأن كثيرًا من الناس، سواء في الكنيسة أم من خارجها، هم عطاش إلى النعمة.



فيليپ يانسي

تربَّى فيليپ في عائلةٍ محافظة من الجنوب الأميركيّ، وكان يميلُ إلى النظر إلى الله على أنَّه "شرطيٌّ ساخط يبحثُ عن أيِّ شخصٍ يحاول التمتُّع بحياته ليقبضَ عليه". هكذا يُعبِّر يانسي عن "تعافيه" من كنيسةٍ أدَّت ممارساتُها إلى ترسيخ هذه الصورة الخاطئة عن الله.

وينعكسُ هذا في ما قالَه مرَّةً: "أنا أؤلِّف كُتبًا لنفسي. أنا حاجٌّ أتعافى من التربية الكنسيَّة السيِّئة، وأبحثُ عن الإيمان الذي يجعلُ تابعيه أكبر لا أصغر. أشعر بعرفانٍ غامرٍ لتمكُّني من وَضْع كتاباتٍ حيَّة في ما يتعلَّق بالأسئلة التي لطالَما أثارت اهتمامي".

من أهمِّ كتبه المترجمة إلى العربيَّة: "عندما لا تمطر السماء"، و"أين الله عندما أتألَّم؟"، و"ما أعجب النعمة"، و"بالكاد نجوت"، و"النعمة المُغيَّبة".

السؤال الذي لا يغيب

The Question That Never Goes Away

كيف نجدُ المعنى في خِضَمِّ المعاناة

في كتابِه الكلاسيكيّ: "أين الله عندما أتألَّم"، سمح لنا فيليپ يانسي بأن نشكّ، وقدَّم إلينا أسبابًا لئلَّا نتخلَّى عن الإيمان، وطُرُقًا عمليَّة لمساعدة المتضرِّرين.

والآن، بعد مرور خمس وثلاثين سنة على كتابه ذاك، يعودُ يانسي ثانيةً إلى صرختنا: "لماذا يا الله؟" في ثلاثة مَواقع صُعِقَ فيها النَّاس وأبكَمَهم الذُّهول من هَولِ النَّكبات التي لحِقتْ بهم. في وقتٍ ما، سنواجِهُ جميعًا تحدِّياتِ الإيمان التي يكتبُ يانسي عنها، وسنبحثُ عنِ التَّعزيةِ والرَّجاء اللذَين يَصِفُهما.

ثمَّة أسبابٌ لنَطرحَ مجدَّدًا السؤالَ الذي لا يغيب: أين الله عندما نتألَّم؟ ويقودُنا يانسي ثانيةً لنَجِدَ الإيمانَ عندما يُمتَحَن بأقسى درجةٍ مُمكِنة.



www.ophir.com.jo
@ophirpub
ophirpub
أوفير
ophir